جامعة جنوب الوادي

قسم اللغة الفارسية

الفكر الإسلامي في المشرق

أ.د/ محمد السعيد عبد المؤمن

أستاذ الدراسات الإيرانية بجامعة عين شمس

الفرقة الثانية

قسم اللغة الفارسية – كلية الآداب بقنا

العام الجامعي

٢٠٢٢م / ٢٠٢٣

بيــانــات أساسية

الكلية: الآداب

الفرقة: الثانية

التخصص: لغة فارسية

عدد الصفحات: ١٦٨

القسم التابع له المقرر: قسم اللغة الفارسية

محتوي الكتــاب

الموضوعات	الصفحة
مقدمة	٦
مدخل: تاريخ الفكر في المشرق	١١
العصر التاريخي للمنطقة	١٧
أسس الفكر الإسلامي	٣١
أسلوب الفكر الإسلامي ووسائله	٣٤
ضوابط الفكر الإسلامي	٤٠
الأطر الإسلامية للفكر	٥٠
إنجازات الفكر الإسلامي	٥٣
الفكر السياسي الإسلامي	٦١
علم الكلام	٦٨
المعتزلة	٧١
الأشاعرة	٨٤
الفكر الصوفي	٩٧

الشيعة	١١٨
المشروع الشيعي للحكومة الإسلامية	١٣٠
مفهوم فكري للحضارة ومسيرتها	١٣٦
الحضارة والثقافة:	١٣٩
الفكر الإسلامي وحوار الحضارات	١٤٤
الأهداف الإسلامية لحوار الحضارات	١٥٥
التنمية الفكرية ضرورة إسلامية	١٦٠
مدخل إسلامي للتنمية الفكرية الإسلامية	١٦٥
نموذج للتنمية الفكرية الإسلامية:	١٦٦
خاتمة	١٦٧

مقدمة:

الإنسان مخلوق بفطرته متدينا لا يستطيع الحياة بدون مرجعية إلهية تتفاعل في وجدانه ليعيش عالمه المادي والروحي متوازنا. وعلى الرغم من انحراف هذه الفطرة عن هذه المرجعية الدينية الإلهية نتيجة فساد بيئته التي نشأ فيها إلا أننا نجدها تتطلع دائما إلى الارتباط بهداية خالق هذا الكون فتبحث عنه، وخير شاهد على ذلك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وطريقة تفكيره التي سلكها لمعرفة ربه. وهكذا فإن التزام الإنسان وتمسكه بمنهج خالقه هو الطريق الوحيد نحو حياة أفضل، فالعلاقة وثيقة بين القوانين الحاكمة للكون والمنهج الإلهي الحاكم لحركة الإنسان في هذا الكون. لذلك وجد المسلمون الأوائل أنفسهم في حاجة إلى صياغة النموذج المعرفي الذي يكون عقل الإنسان بناء على عقيدته ورؤيته الكلية للكون والإنسان وقيمه الأخلاقية. باعتبار أن هذا النموذج من وجهة النظر الإسلامية هو المكون الأساسي لشخصية المسلم الضابط لفكره وسلوكه ليقوم بين الناس بالقسط وليمنحهم الحب والوفاء والسلام.

ولأن العالم الذي يراه الإنسان هو ذلك العالم الذي يتخيله في ذهنه، لذلك فإن الإنسان هو الذي يصنع نجاحه أو فشله، سعادته أو تعاسته وذلك بما يحمله

من تصورات وتفاعلات بداخله، فمنشأ قوته أو ضعفه من الداخل، ولما كان فك شفراته يحتاج إلى جهود علماء الأرض مجتمعين فكان من المنطق أن يرجع إلى خالقه ليهديه ويضع له منهج حياته.

الفكر هو رأس الأمور، لأنه ناتج إعمال العقل، الذي هو منحة الله للإنسان، ميزه بها عن غيره من الكائنات، واصطفاه بها لحمل الرسالة، وليكون خليفة الله على الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) وما أن منح الله الإنسان العقل حتى آتاه العلم الذي يحتاجه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١).

والفكر الإسلامي يستقي مصادره ومادته ويتحرك في إطار الإسلام لا يخرج عنه ولا يزيد عليه. ونركز على الفكر الإسلامي في المشرق، لأنه يعنينا أن ندرس الفكر الإسلامي في منطقة تجمع معظم المسلمين، أو ما يسمى بالعالم الإسلامي،

وهو ما يضم العالم العربي ودول الشرق الأوسط الإسلامية وآسيا الوسطى وشرق آسيا، أي الشرق الأوسط الكبير أو الموسع. وهذا ليس معناه عدم وجود فكر إسلامي سوى في المشرق، وإنما اهتمامنا يكون بالمنطقة التي تعد حقلا للدراسات الشرقية. وتلك المنطقة كانت مواجة بالفكر قبل انتشار الإسلام فيها، حيث كان الفكر الحنفي أو الإبراهيمي والفكر اليهودي في الجزيرة العربية فضلا عن الفكر الوثني، وكان هناك الفكر المسيحي الشرقي في دولة الروم الشرقية، والفكر الزردشتي وما تفرع عنه من فكر مانوي وفكر مزدكي في الامبراطورية الفارسية، ثم كان الفكر البوذي والكونفوشيوسي في شبه القارة الهندية. ولا شك أن مثل هذه التيارات الفكرية التي سبقت الإسلام قد انحرف عن المنهج العقلي والفطرة السليمة، ومن ثم جاء الإسلام كدين خاتم ليصلح العيوب ويسد النقص فتكتمل الصورة الحقيقية للدين الحقيقي الذي سيظل على الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وكانت معجزة الإسلام هي القرآن الذي يحمل فكر هذا الدين وتوجيهاته وتعاليمه، والذي ضمن الله أن يبقيه محفوظا من كل تحريف إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) (الحجر: ٩) ومن الطبيعي أن آخر ما يقوم به الصانع أن يضع اللمسات الأخيرة لصنعه حتى يخرج

خاليا من العيوب، ويصبح علامة عليه، ولا شك أن التيارات الفكرية التي سبقت الإسلام كانت معيبة وكان فيها جانب إيجابي وجوانب سلبية، بحيث طغت سلبياتها على إيجابياتها، فكانت في حاجة إلى أن يأتي فكر جديد ليصفيها وينقيها من عيوبها ويوجهها إلى الاتجاه الصحيح حتى تستمر مسيرة الحياة على الأرض إلى غايتها بعد إعادة صياغتها وتنظيمها بعد أن تفرقت بها السبل، كما أن الأمانة التي حملها الإنسان كانت تقتضي أن يستفيد بالإمكانات التي وهبها الله له، ليعمل عقله ويعمل ما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، ومن ثم فقد تعرض الفكر الإسلامي لكل الأفكار التي كانت موجودة قبله في المنطقة بالدراسة والتحليل والنقد، لكنه اختط طريقا خاصا به بعد أن رفضها ورفض منطلقاتها، ومصادرها، والإطار الذي تتحرك فيه، لأن اتخاذه اسم الإسلام يعني التسليم في الفكر لله الواحد والسير على طريقه لأنه مالك كل شيء، ولا يستطيع الإنسان أن يخرج عن ملكه، فعليه أن يتحرك في إطار هذا الملك، ويسلم لمالك الملك، ولذلك كانت فكرة الإسلام في حد ذاتها فكرة جوهرية في توجيه الفكر إلى الوجهة التي اختارها. من هذا المنطلق كان التفكير في إقامة نظام فكري يمكن تطبيقه، بحيث يكون منبرا لجهود مشتركة تقوم بتحقيق أهداف الإسلام لا من زاوية شكلية فقط، ولكن من

زاوية إيمانية واقعية تهتم ببناء البعد الروحي والخلقي الذي يساعد على عمارة الكون بصورة موزونة فعالة.

مدخل: تاريخ الفكر في المشرق

لقد أصبح من الضروري إعادة النظر في تاريخ الشرق عموما والشرق الأوسط خصوصا من خلال رؤية إسلامية، إزاء سيطرة نظريات مؤرخي الغرب علي معظم الجهود الحديثة والمعاصرة في كتابة تاريخ الشرق حتى لدى الكتاب العرب والمسلمين أنفسهم سواء على مستوى فلسفة التاريخ أو الكتابة التاريخية أو التأريخ الفعلي لشعوب المنطقة، لقد ربطت الرؤية الغربية تاريخ المنطقة بمصلحة جماعة بشرية معينة ومنظورها التاريخي خلال العصور المختلفة، حيث ربطت المنطقة حينا بالتاريخ اليهودي ومصلحة اليهود، وربطتها حينا آخر بالتاريخ المسيحي، أو بالحركات الغربية الفلسفية والأيديولوجية مثل العلمانية والشيوعية والمادية التاريخية، مما أدى إلى تشويه تاريخ المنطقة والبعد عن فلسفته الحقيقية ورؤيته للكون والوجود، وإهمال الشعوب الفاعلة في هذا التاريخ.

ورغم المحاولات القليلة التي تمت من أجل بلورة رؤية إسلامية لتاريخ المنطقة مثل أحمد سوسة في كتابه: العرب واليهود في التاريخ _ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، محمد أبو المحاسن عصفور في كتابه: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، محمد خليفة حسن في كتابه: دراسات في تاريخ وحضارة

الشعوب السامية القديمة، وكتابه: رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، أحمد فخري في كتابه: دراسات في تاريخ الشرق القديم، محمد بيومي مهران في كتابه: دراسات في تاريخ العرب القديم، إلا أن الحاجة مازالت ماسة إلى رؤية شمولية علمية تستند إلى أدلة تاريخية وحضارية تثبت إسلامية هذا التاريخ، وانتظام مراحله التاريخية العربية ثم الإسلامية، وتوجه حركته التاريخية تجاه تحقيق مصلحة الأمة الإسلامية وتبرز استقلاليتها من ناحية، وفضلها على تاريخ المنطقة والتاريخ الإنساني عامة من ناحية أخرى. وتشير الوثائق والآثار إلى أن منطقة المشرق قد ضمت مجموعتين من الشعوب، الأولى هي مجموعة الشعوب الداخلية التي تكون قلب الشرق، والتي تتوحد فيما بينها بواسطة مجموعة من العوامل، وتشتمل على العرب في شبه الجزيرة العربية وعلي شعوب المنطقة السورية، مثل الكنعانيين والآراميين والفينيقيين والفلسطينيين والعبريين وبعض الجماعات العربية الصغيرة كالموابيين والادوميين واليبوسيين وغيرهم، فضلا عن سكان بلاد النهرين كالأكديين الذين انقسموا فيما بعد إلى البابليين والآشوريين، أما المجموعة الثانية التي ضمتها المنطقة فهي مجموعة الشعوب الخارجية وتشتمل على مصر غربا وإيران شرقا وشعوب الأناضول شمالا، وكانت هناك علاقات

طبيعية بين شعوب المجموعتين على المستوى السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي سلبا وإيجابا رغم وجود تباين في اللغات والعقائد والإمكانات الطبيعية والبشرية.

يؤكد علماء الأجناس علي وجود وحدة جنسية بين شعوب المنطقة، حيث يقول سباتيني موسكاتي مثال: "إن الصحراء العربية هي قلب الشرق وهي موطن الساميين والعرب الذين اشتغلوا بالرعي منذ البداية، وقد أجبرهم قحط بلادهم علي الخروج مرات متتالية إلى الأقاليم الخصبة المحيطة[١]".

وتمكن العرب من تحقيق السيادة على كل هذه المناطق[٢] وقد قام علماء الحضارة برصد الهجرات العربية القديمة، وأهمها الهجرة إلى وادي النيل حوالي ٣٥٠٠ ق.م. والهجرة إلى وادي الرافدين في نفس الفترة تقريبا[٣] والهجرة إلى سوريا حوالي ٢٥٠٠ ق.م[٤]. كانت لهذه الهجرات أثرها الكبير في تحقيق الاندماج بين شعوب المنطقة الداخلية والاحتكاك الإيجابي مع شعوب المنطقة الخارجية،

---

(١)SAPATINO MOSCATI : THE FACE OF THE ANCIENT ORIENT TRANSFORM – P9 NEW YORK –1962.

(٢)IBID P101

٣) فيليب حيت: اتريخ العرب من أقدم العصور حتت العصر احلاضر ص ١٠. لندن ١٩٥٨ م.

٤) المصدر السابق ص ١١.

فتوحدت منطقة الشرق الأوسط حضاريا وثقافيا وفكريا، بفضل العوامل السياسية التي أتاحت ظهور قوي سياسية ذات حضارة قوية تمكنت من نشر ثقافتها وحضارتها، وفتحت فرص الاحتكاك الثقافي والحضاري بين شعوب المنطقة، وقد ظلت هذه الوحدة الحضارية الثقافية حتى زمن الغزو اليوناني للمنطقة، والذي تميز بأنه غزو فكري حيث عمد الإسكندر الأكبر وأتباعه إلى استغلال الفتوحات العسكرية في نشر الثقافة اليونانية، واستمر التأثير الثقافي اليوناني فترة طويلة من الزمن لم تنجح المسيحية في محوه في حين استطاع الإسلام استعادة الوحدة الحضارية الثقافية الفكرية للمنطقة مرة أخرى.

وتعتبر منطقة المشرق من أكثر مناطق العالم القديم إبداعا للفكر بدءا من الأسطورة التي احتوت مضامين فكرية عالية تدل على عمق الإدراك وأرجحية العقل، وقد ساعدت البيئة والتربة على نشأة الفكر في شكل الأسطورة وتطورها وانتشارها، كما كانت أكثر مناطق العالم تأثيرا على غيرها في مجال التفكير الأسطوري، فمن هذه المنطقة انطلقت الموتيفات الأسطورية والحكايات الخرافية تغزو فكر الشعوب المحيطة وتترك أثرها الدائم في أساطير العالم القديم[١]. لذلك

---

١) موسكاتي ص ٢٣٨.

فمن البديهي أن يكون لهذه المنطقة تاريخا أسطوريا يبدأ مع بداية الخليقة أي منذ عهد آدم عليه السلام حيث جعلت منه بعض شعوب المنطقة وخاصة إيران أقدم ملوكها، حيث تذكر كتب التاريخ المعتبرة باللغة العربية مثل تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري، مروج الذهب للمسعودي، الكامل لابن الأثير، الأخبار الطوال للدينوري، وباللغة الفارسية مثل روضة الصفا لمير خواند، حبيب السير لخوندمير أن الفرس أو العجم قد زعموا بأن گيومرث أول ملوكهم هو آدم عليه السلام، وذهب الطبري إلى أبعد من ذلك عندما أكد أنه جامر بن يافث بن نوح عليه السلام[١]، في حين أكد خوندمير أنه قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام[٢]، وقد أكد الطبري أيضا أن فريدون سادس ملوك إيران والشرق هو نوح عليه السلام، وأنه قسم ملكه علي أبنائه الثالثة سلم وتور وايرج الذين هم سام وحام ويافث[٣].

ويمضي التاريخ الأسطوري للمنطقة في عملية ربط متصلة بين سكان هذه المنطقة وبين السماء إلى الحد الذي جعلهم يقررون ظهور توحيد الله في هذه

---

١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج١ ص١٤٦ طبع دار المعارف مصر.

٢) خوندمري : حبيب السري ج١ ص٤٦ طبع طهران ١٣٤٢ هـ.ش.

٣) الطبري ج١ ص٢١٠.

الأرض قبل بعثة الأنبياء مثلما حدث في مصر في عهد اخناتون، بل يذهبون إلى حد الادعاء بظهور رسل من قبل السماء برسالات سماوية حتى مع عدم ذكرهم أو الإشارة إليهم في الكتب السماوية مثل زردشت نبي الفرس، وأكد الطبري أن زردشت من أهل فلسطين، ويري علماء الديانات في إيران أن الزردشتية دين توحيد وأن آهورامزدا هو الإله المطلق وما أهريمن إلا ملك الظلمات عدو الخير، علي عكس ما يعتقده الناس من أن الزردشتية هي دين الإثنينية أو عبادة النار بل إن التحريف في هذا الدين قد ظهر فيما بعد على أيدي الكهنة الجشعين من أجل مكاسب دنيوية[١].

ويمتلئ التاريخ الأسطوري للشرق الأوسط بالقصص الملحمية التي تشير إلى البطولات التي حققها الأسالف في صراعهم ضد عوامل الطبيعة القاسية من ناحية، وصراعهم ضد الشر من ناحية أخرى، والذي كان يتمثل غالبا في الجن والشياطين الذين كانوا يتلبسون صورة البشر أحيانا وصور الحيوانات أحيانا أخرى أو صورا هولامية مخيفة أو مقززة. وتعتبر قصص ألف ليلة وليلة صدي لهذا التاريخ الأسطوري الذي لا تختلف حوله شعوب المنطقة، وتؤمن به وتعتبره جزءا

١) محمد آراسته خوي: فرهنگ معنوي وايدولوژيهاي حاكم بر تفكرات عصر هخامنشي ص١٤ طبع طهران ١٣٤٣هـ.ش.

من تراثها الحضاري، حيث تتدرج فيه مراحل التقدم الحضاري من اكتشاف النار إلى اكتشاف الحديد، ومن جمع الثمار إلى الزراعة، ومن حفر الكهوف إلى بناء المنازل، ومن استخدام الحربة إلى الخطط الحربية. الشك أن التاريخ الأسطوري يعكس تقدما حضاريا هائلا في منطقة الشرق الأوسط سمي بحضارات ما قبل التاريخ تمييزا له عن الحضارات التاريخية، ويلاحظ على شعوب المنطقة جميعها اشتراكها في تحقيق هذه المنجزات الحضارية باشتراكها في تراث أسطوري متشابه على الرغم من اختلاف أجناسها.

العصر التاريخي للمنطقة:

لقد استمرت الأسطورة حتى مع دخول الشرق القديم في العصر التاريخي عند الألف الثالثة قبل الميلاد تقريبا لفترة من الزمن تمارس تأثيرها القوي في التركيبة العقلية لشعوب هذا الشرق، وتعتبر ملحمة جلجاميش والشاهنامه الإيرانية دليلا حيا على هذا التأثير، إن التغيير الأساسي الذي ميز بين حضارة ما قبل التاريخ وحضارة ما بعد التاريخ ينحصر في عملية اكتشاف الكتابة واستخدامها في تسجيل الأحداث الإنسانية، وانحسار الأسطورة أو ضعف دورها في عملية الحفظ

الشفهي للتراث الإنساني، فقد بدأت الكتابة في الاضطالع بهذه المهمة كبديل للتراث الشفهي، كما تم تدوين الأساطير وكتابتها لتظل تراثا مكتوبا.

أدت الحفريات التي قام بها علماء الآثار في منطقة الشرق الأوسط إلى اكتشاف بدايات التاريخ الحقيقي للمنطقة، حيث تم اكتشاف مدينة أوجاريت شمال سوريا، وهي مدينة ازدهرت على مدى أربعة آلاف سنة وكانت مركزا قديما للتبادل الحضاري بين منطقة الشرق الأدنى وجزر ومنطقة البحر المتوسط، كما تم اكتشاف مدينة ماري الواقعة علي نهر الفرات وكانت مركزا حضاريا امتدت آثاره إلى شمال منطقة مابين النهرين، وقد تم اكتشاف وثائق البحر الميت، وفضلا عن اكتشاف هذه الوثائق ساعدت النتائج التي توصل إليها علماء الآثار على تزويد المؤرخين بمادة جديدة حول التاريخ السياسي لامبراطوريات الشرق القديم، ومن المشاكل التي ترتبت علي نتائج الاكتشافات الأثرية مشكلة الحدود الإقليمية والحدود التاريخية لحضارات هذه المنطقة، كما ظهرت بعض المصطلحات التي من أهمها مصطلح الشرق الأدنى القديم بعد أن كان مصطلح المشرق هو الشائع، إلا أن هذه الحفريات قد أكدت على ظهور إمبراطوريات عديدة في المنطقة مثل الأكديين والبابليين والآشوريين في بلاد النهرين، والعيلاميين والفرس

والميديين في إيران، والحيثيين والحوريين في بلاد الأناضول، والدول المصرية القديمة التي نافست كل القوى السابقة الذكر في السيطرة على الشرق القديم، وقد احتفظت الجزيرة العربية باستقلالها السياسي والحضاري، لصعوبة وصول الجيوش الغازية إليها بسبب طبيعتها الجغرافية[1] وتمكنت شبه الجزيرة العربية بوسائل سلمية خالصة من مد نفوذها الحضاري والسكاني والفكري إلى كافة أنحاء المنطقة، وأن تحدث تغييرا جذريا في البنية السكانية للمنطقة، حيث أدت الهجرات العربية إلى بلاد النهرين خلال الألف الرابع قبل الميلاد إلي التغلب التدريجي على السومريين حضاريا وثقافيا حتى قيام الدولة الأكدية (٢٣٧١-٢٣١٦ق.م) وهي أول دولة من أصل عربي، وتوالت بعد ذلك الدول العربية ومن أهمها الدولة البابلية والدولة الأشورية والدولة الكلدانية والتي جعلت من تاريخ بلاد النهرين تاريخا عربيا ومن حضارته حضارة عربية، كما كونت الهجرة العربية المعروفة بالهجرة الكنعانية التي سكنت الساحل الغربي للبحر المتوسط أوائل الألف الثالث قبل الميلاد عددا من الشعوب أهمها الكنعانيون والفينيقيون والمؤابيون والعبريون أقاموا حضارة بحرية وأنشأوا مدنا ساحلية حصينة مثل صور وصيدا وجبيل وأرواد

---

١) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ص ٣٢٨ – طبع دمشق ١٩٩٠م.

ورأس شمرة، كما قاموا بتنشيط التجارة بين هذا الإقليم وإقليم الحجاز[١]، ويعتقد المؤرخون أن العرب انطلقوا أيضا من مدينة حران وتقع بين العراق وسوريا إلى بلاد أمورو غربا، وأن هذه الرحلة تمت في بداية الألف الثاني قبل الميلاد[٢]، أما الآراميون فقد عاشوا في الصحراء السورية، وهي امتداد طبيعي للجزيرة العربية وسيطروا على المحطات التجارية، كما نزلوا شمال العراق في الألف الثالث قبل الميلاد، وكونوا إمارات عديدة هناك.

اعتاد المؤرخون علي تقسيم تاريخ العرب قبل الإسلام إلي قسمين: العرب البائدة التي انتهى وجودها قبل ظهور الإسلام، والعرب الباقية وهم عندهم قسمان: العرب القحطانية من حمير ونحوها من أهل اليمن، والعرب العدنانية في الحجاز وما يليها[٣]، ومن دراسة أحوال العرب وتاريخهم يبدو أن هذا التاريخ قد مر بثلاثة أدوار رئيسية، كانت السيادة في الدور الأول لعرب القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية وأكثرهم من العرب البائدة، ثم انتقلت السيادة في الدور الثاني من هذا التاريخ إلي عرب القسم الجنوبي من الجزيرة العربية وأكثرهم من القحطانية، وفي

---

١) حسن ظاظا: الساميون ولغاهتم ص ٥٢ طبع دار القلم بدمشق.

٢) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ٦٣.

٣) جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام . طبع دار الهلال.

الدور الثالث والأخير عادت السيادة إلي عرب الشمال وأكثرهم من العدنانية، واستمرت هذه السيادة حتى ظهور الإسلام.

وقد شهد جنوب شبه الجزيرة العربية في الألف الثاني والألف الأول قبل الميلاد ظهور عدد من الدول أهمها معين وسبأ وقتبان وحضرموت، وقد ورد ذكر المعينيين في المصادر اليونانية[١]، كما ذكرهم العهد القديم في سفر الأخبار الثاني (٧:٢٦) وذكروا في آثار بين النهرين (نقش مسماري يعود إلى عصر نارام من حوالي ٣٧٥٠ ق.م.)، أما مملكة سبأ فقد قسموا تاريخها إلى مرحلتين، الأولى من ٨٥٠ إلي ١١٥ ق.م.، ورصدت أسماء ٢٧ حاكما لها، وبعد تصدع سد مأرب ضعفت دولتهم فاتحدوا مع الريدانيين وبدأ عصر دولة حمير الذي امتد من ١١٥ ق.م. إلى ٥٢٥م، وينتهي حكم دولة حمير بالغزو الحبشي، وإلى جانب هذه الدول ظهرت دول وإمارات صغيرة مثل الجبئيون والقتبانيون.

أما في منطقة الرافدين فالبابليون والأشوريون هم ورثة السومريين وهم نتاج الاندماج الذي تم بين العنصر السامي القادم من قلب الصحراء العربية والعنصر السومري غير السامي في المنطقة، وتعود أقدم الهجرات العربية إلى بلاد الرافدين

---

١) محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٥٢ طبع القاهرة.

إلى ما قبل الألف الثالث قبل الميلاد إلا أن السومرية قد ظلت لغة الكتابة والعلم والدين حتى بعد اندماج السومريين في العرب، ولم ينته استخدام هذه اللغة كلغة للحديث إلا بعد ظهور الأكدية التي سادت منذ العصر البابلي القديم[١].

وتحتوي المصادر الخاصة بمعرفة حضارة مابين النهرين على نتائج الحفائر التي تمت بطريقة منتظمة منذ عام ١٨٥٠م، والتي كشفت عن عدد كبير من المعابد والقصور الأثرية والتماثيل والأختام والنقوش والمدن القديمة والوثائق المدونة والألواح والمباني، التي ساعدت على بناء أحداث التاريخ الخاص بالمنطقة، ووضع أسس التفكير الديني والاجتماعي للبابليين والآشوريين وكذلك معرفة لغات المنطقة.

لعب البابليون والأشوريون دورا هاما في تاريخ الشرق الأدنى القديم حيث صارت منطقة مابين النهرين من أهم مراكز القوى التي استطاعت تغيير الوجه الفكري والسياسي للمنطقة بما امتلكته من نفوذ سياسي وقوة عسكرية وتأثير حضاري وثقافي، فإذا كان السومريون قد عرفوا نظام دولة المدينة، وحقق سرجون الأكدي نظام مركزية الدولة، فقد استطاعت الدولة البابلية الأولى وضع قانون عام

---

١) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القدمية ج ١ ص ٣٥٥ بغداد ط٢ ١٩٨٦م.

للحكم وهو قانون حمورابي الذي تمكن من مد سلطة بابل إلى آشور وسوريا[1]. وفي العصر الأشوري تدفقت هجرات الأقوام العربية المعروفة بالأموريين إلى بلاد مابين النهرين فغيرت التركيبة السكانية في وسط وشمال هذه البلاد وكونت دولت قوية، واستطاعت أن تمد نفوذها إلى البحر الأسود والبحر المتوسط غربا وبابل جنوبا وسوريا وفلسطين والطريق المؤدي إلى مصر، واستطاعت غزو مصر وكان اشور بانيبال آخر الملوك العظام لهذه الدولة.

كانت المنطقة المطلة على البحر المتوسط والمحصورة بين مصر في الجنوب والأناضول في الشمال مركز تجمع لعدد من شعوب الصحراء التي كونت الهجرات السامية الأولي القديمة من شبه الجزيرة العربية، وقد ضمت المنطقة الساحلية سوريا وفلسطين ولبنان، وعاشت فيها شعوب مختلفة مثل الكنعانيين والآراميين والعبريين والفلسطينيين وغيرهم، وتركز الأموريون في شمال هذه المنطقة والكنعانيون في الساحل والأراميون في المنطقة الداخلية والعبريون في الجنوب، ويعتبر الكنعانيون من أهم هذه الشعوب لما حققوه من رواج تجاري واقتصادي لهذه المنطقة، وإذا كان الكنعانيون قد فشلوا في تكوين قوة سياسية إزاء

---

١) هورست كلبغل : حمورابي ملك بابل وعصره، ترجمة غازي شريف، بغداد ١٩٧٨م.

وجود القوة السياسية للمصريين من ناحية، وانشغالهم بالعمل التجاري والاقتصادي من ناحية أخرى، فقد تركوا أثرهم الحضاري الواضح على شعوب المنطقة، خاصة فيما يتعلق باللغة والعقائد والزراعة والتجارة وصناعة المعادن مع اكتشافهم النحاس وخلطه بالقصدير لصناعة البرونز فضلا عن صناعة العاج والزجاج والنسيج والأصباغ، إضافة إلى براعتهم في الأعمال الهندسية مثل بناء القلاع والحصون ورفع المياه إلى المناطق العالية وكذلك بناء السفن التجارية[١].

يعتبر إقليم خوزستان الامتداد الطبيعي لسهل بلاد الرافدين، وفي هذا الإقليم كانت حضارة عيلام مزدهرة إبان الألف الثالث قبل الميلاد، وقد كشفت أعمال التنقيب في العديد من تلاله عن مساكن وجبانات لمجتمعات زراعية بلغت درجة كبيرة من الرقي الحضاري والفكري، كما تبين أن حضارة هذا الإقليم كانت مكملة لحضارة بلاد النهرين، أما شبه الهضبة الإيرانية فقد كانت مسرحا لهجرات الأقوام الهندوأوربية التي استقر بعضها فيها بينما اتجه البعض الآخر إلي إقليم آسيا الصغرى، وقد استطاع الآريون بناء حضارة قوية في شبه الهضبة الإيرانية، وكان الميديون أول من أسس امبراطورية كبيرة في هذه المنطقة في القرن التاسع قبل

---

١) محمد خليفة حسن: تاريخ الشرق القديم وحضارته، ص ٢٠٨، القاهرة ١٩٩٥م.

الميلاد، حيث استطاعوا أن يقتسموا مع البابليين مملكة آشور فبسطوا نفوذهم علي الأقاليم الواقعة شرق دجلة وشماله وتوسعوا نحو الغرب داخل آسيا الوسطي، كما تحالفوا مع مملكة ليديا، وفي ٥٨٥ق.م. استولوا على اورارتو عند بحيرة وان ووصل نفوذهم حتي نهر اراخيش (اراس)[١].

تذكر الحوليات الأشورية ٨٤٣ق.م. أن قبيلة بارسوا التي استقرت في المنطقة التي تقع جنوب بحيرة اورميا (رضائيه) قد هاجرت في القرن الثامن قبل الميلاد إلى الجنوب واستقرت عند سفوح جبال بختياري فيما عرف بعد ذلك بمنطقة فارس وكونوا دولة عرفت بالدولة الأكمينية، استطاع مؤسسها قورش الأول بعد تزوجه من ابنة ملك الميديين أن يصبح وريثا المبراطور ليديا، وأن يوحد شبه الهضبة الإيرانية تحت قيادته كما وسع حدوده شمالا واستولى على ليديا ومعظم آسيا الصغرى، ثم استولي علي بابل فوصلت حدود مملكته إلى البحر المتوسط غربا وبلاد الهند شرقا فخضعت له كل بلاد الرافدين وسوريا وفينيقيا وفلسطين، واستطاع ابنه قمبيز الاستيلاء على مصر[٢]، وبهذا أصبحت منطقة الشرق الأوسط موحدة تحت حكم دولة واحدة، ولعلها أصبحت منطقة حضارية وفكرية

---

١) المصدر السابق ص ٢٢٠.

٢) محمد عبد القادر محمد: ايران منذ فجر التاريخ حيت الفتح الإسلامي، القاهرة ١٩٨٢م ص ١٩٦١م.

واحدة حافظت على وحدتها الحضارية وما يزال علماء الآثار يرون هذه الوحدة وهذا الانسجام في آثار تلك المنطقة.

وقد مر مصطلح المشرق بمراحل عديدة من حيث الدلالات والمؤشرات والأهداف، ففي البداية أطلق مصطلح الشرق الأدنى على المنطقة الجغرافية الخاصة بغرب آسيا وما يجاورها أي البلاد العربية بدءا من الخليج وحتى شمال أفريقيا، عندما ارتبطت هذه المنطقة بالقوى الاستعمارية الأوربية، ومع تزايد حركة التجارة العالمية واتساع العلاقات الاقتصادية بين منطقتي شرق آسيا والصين وبين أوربا، بدأ المؤرخون يطلقون على هذه المنطقة الجديدة مصطلح الشرق الأقصى، أما مصطلح الشرق الأوسط فقد أطلقه المؤرخون من أمثال الأمريكي الفرد ماهان الذي كان أول من استخدم هذا المصطلح، في إطار رؤيتهم لتطورات الاستراتيجية البريطانية وتحركها، وفي إطار رؤيتهم للتنسيق السياسي الهيكلي للاستراتيجية البريطانية مع النشاطات الروسية والمشروعات الألمانية في مناطق الخلافة العثمانية[١]، وكانوا يعنون بهذا المصطلح المنطقة الجيوبوليتيكية المحصورة بين الشرق الأدنى والشرق الأوسط، ولا ينطبق عليها أي من المصطلحين السابقين.

---

١) جميل مطر، علي الدين هلال: النظام الإقليمي العربي، ص١٤، ط١ بيروت ١٩٧٩م.

درجت الأوساط السياسية والأكاديمية عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى على استخدام مصطلح الشرق الأوسط مع تطويره، ليشمل بعضا من البقاع الجغرافية التي كان يحملها مصطلح الشرق الأدنى، ولعل أوضح دليل علي ذلك قيام الحكومة البريطانية بتشكيل إدارة للشرق الأوسط تعني بأمور العراق وفلسطين وشرق الأردن، كما تم توحيد قيادة الشرق الأوسط للقوات البريطانية ومقرها العراق ومثيلتها ومقرها في مصر، وإطلاق اسم قيادة الشرق الأوسط على هاتين القيادتين[١].

في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية شاع استخدام مصطلح الشرق الأوسط، وبدأت الدول الكبرى وعلي رأسها بريطانيا وفرنسا في إطلاق مفهوم الشرق الأوسط على تلك المنطقة من غرب الهند في آسيا إلي شمال أفريقيا، بل وأصبح العديد من المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية التي تعمل تحت قيادة الحلفاء تعرف بمنظمات الشرق الأوسط التي بدأت في التعامل مع دول المنطقة العربية وتقدم المساعدات والخبرات في مجال العمل والأعمال والاقتصاد والتنمية. وقد بدأ المؤرخون منذ أواسط الخمسينيات في التعامل مع الشرق الأوسط على أنه

١) طارق فهمي: حدود المصطلح. أوراق الشرق الأوسط. القاهرة ١٩٩٦م ص ١٠.

حقيقة جغرافية ثابتة، وقد جاء ذلك في تصنيفات وزارة الخارجية الأمريكية لمناطق العالم المختلفة خاصة في أفريقيا وأوربا والعالم العربي، ويذكر تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية أن الشرق الأوسط هو المنطقة التي تبدأ من المغرب على المحيط الأطلنطي والبحر المتوسط في شمال أفريقيا غربا إلى باكستان علي الحدود الغربية للهند شرقا، ومن تركيا علي البحر الأسود شمالا حتى السودان والقرن الأفريقي جنوبا[١].

على كل حال صار مصطلح الشرق الأوسط ثابتا في الكتابات والدراسات العلمية المختلفة ويشمل منطقة جغرافية معينة يتفق على وحداتها السياسية وهي: مصر، الأردن، فلسطين، إسرائيل، سوريا، لبنان، العراق، دول الخليج العربية (المملكة العربية السعودية، الكويت، البحرين، قطر، الإمارات العربية المتحدة، عمان)، اليمن، بالإضافة إلى تركيا، إيران، أثيوبيا وأريتريا، وهناك اختلاف على إدخال قبرص، السودان، الصومال، أفغانستان، باكستان ودول المنطقة المغاربية كوحدات سياسية ضمن المنطقة، ومن هنا فإن التوصل إلى تعريف جامع مانع للشرق الأوسط لازال أمرا لم يتحقق بعد، فالمصطلح قد يشمل أيضا مجموعة

---

١) سعد الدين إبراهيم: النظام الإقليمي العريب الجديد، ص٢٥٢، ط١، القاهرة ١٩٧٩م.

الدول التي تدين شعوبها بالإسلام في جنوب ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي، وقد تزايدت أهمية الإقليم لاعتبارات مختلفة أهمها أنه يمثل مصدرا لإنتاج أكثر من ربع بترول العالم و٦٠ % من احتياطياته المؤكدة، كما أنه نظرا لاعتبارات تاريخية وسياسية متطورة فإن مجموعة الدول الإسلامية وما يجاورها في منظومة الاتحاد السوفييتي السابق فقد بات التعريف يشملها أيضا بصورة أو بأخرى. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ونتيجة للحرب الباردة بين القطبية الثنائية: قطب رأسمالي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية وقطب اشتراكي يقوده الاتحاد السوفييتي اكتسب الشرق الأوسط أهمية بالغة وفقا لتصورات وعقائد ايدويولوجية مختلفة، حيث بدأ السعي الغربي لاحتواء النفوذ السوفييتي وحصاره والحيلولة دون انتشاره خاصة إلى أفغانستان وتركيا وباكستان والعالم العربي الذي يشتمل على أهم وحدات الشرق الأوسط السياسية، وبالتالي صار الشرق الأوسط والعالم العربي في القلب منه هدفا حيويا للاستراتيجيات الكونية وخاصة الغربية، وذلك في ظل محاولاتها العسكرية السياسية لإعادة تشكيل القوى بما يسمح بخلق تكتلات إقليمية جديدة تسمح بإحكام السيطرة الغربية على هذه المنطقة، وبما يؤدي إلى توظيف إمكاناتها ومواردها من أجل تحقيق أهداف الاستراتيجيات الغربية، وخاصة باحتواء

الخطر الشيوعي من جانب، والحفاظ على بقاء وأمن دولة إسرائيل التي أنشأتها الدول الغربية على أرض فلسطين في مايو ١٩٤٨م من ناحية أخرى[١].

في ظل هذه الأجواء سعت الحكومات الغربية إلى إعادة دمج وحدات العالم الإسلامي في إطار مجموعة تكتلات وكيانات إقليمية ترتبط بالنظام الغربي وقواعده وأيديولوجياته المختلفة، والأمثلة عديدة عل المحاولات الغربية منها البيان الثلاثي عام ١٩٥١م، حلف بغداد (تركيا، العراق، إيران)، الهلال الخصيب (العراق، سوريا، تركيا، الأردن، لبنان، فلسطين)، مشروع ايزنهاور. أما الشرق الأوسط الآن بغض النظر عن التعريف الجغرافي السياسي المستخدم فهو نظام إقليمي أو نظام دولي فرعي، أي أنه عبارة عن مجموعة من الدول تتسم بالجوار الجغرافي وبوتيرة كثيفة من التفاعلات والتشابك فيما بينها، وتؤدي المشكلات الكبيرة والكثيرة في المنطقة وتنوع العرقيات الاجتماعية إلى إثارة الجدل الواسع والساخن حول مفهوم الشرق أوسطية، حيث تسعى بعض التوجهات إلى قلب النظام العربي وتقويض أركانه، وتسعى بعضها إلى تجاوز النظام الجغرافي

١) فاروق يوسف: الشرق الأوسط المعاصر، أوراق الشرق الأوسط، ص٦٨، القاهرة ١٩٩١م.

وتخطي مرحلة القوميات والأيديولوجيات إلى مرحلة التكتلات والتجمعات الاقتصادية العملاقة[1].

أسس الفكر الإسلامي:

عندما ندرس الفكر الإسلامي علينا أن نعرف كيف انطلق ومن أين أخذ مصادره والأسلوب الذي سلكه، والتفرعات التي تفرع إليها، والانجازات التي حققها، والنظريات التي أنتجها، ثم نقارن بين ما وصل إليه الفكر الإسلامي وبين ما كان موجودا قبله، وما وجد بعد ذلك من أفكار خارجة، حتى نصل إلى تقييم صحيح لهذا الفكر، وإلى أفضل السبل في استثماره لكي ننتج فكرا إسلاميا معاصرا، يستطيع توحيد الخطاب الإسلامي مع افتراق الأمة إلى مذاهب متعددة. إن أول وأهم مصادر الفكر الإسلامي هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لأن الديانات السماوية التي سبقت الإسلام انحرف بها أصحابها إلى اتجاهات مختلفة لم تكن لتوصلهم إلى الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى تحقيق مهمة الإنسان على الأرض، ولا تتفق مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها. لقد ورد في القرآن

---

١) شيمون بيريز: الشرق الأوسط الجديد، ص١٢٤، ط١، عمان الأردن.

الكريم ما اعتبره المفكرون الإسلاميون من الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الفكر عامة والفكر الإسلامي بشكل خاص، ومن أبرز هذه الأسس:

أولا: يكون لابدء من توحيد الله، عملا بقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦) وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٤).

ثانيا: الفكر ضرورة لبقاء النسل، يقول تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ (هود: ١١٦)، ويقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤).

ثالثا: نظام الحضارات واحد، يقول تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: ٢٣)

رابعا: المعادلة بين الأمم وعدم التفرقة بين الأديان، يقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١)، ويقول تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (النحل: ٨٤) ويقول تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (القصص: ٧٥)، ويقول تعالى: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٦)

خامسا: الإنسان مجادل بطبعه، يقول تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ (الكهف: ٥٤)

أسلوب الفكر الإسلامي ووسائله:

الفكر ليس ترفا بل تأكيد لوجود الإنسان، وتوجيه لمسيرته، وتصحيح الانحراف ومواجهة حاسمة له بالعقل والمنطق، لأن هذا دليل على الأخذ بالموقف الصادق والقول الصحيح، كما لابد من البرهان، وكان القرآن مليئا بالمواقف التي كانت أساسا لاستنباط أسلوب الفكر الإسلامي، فإذا عرضت قضية تخالف المنطق، انتقدها القرآن وسخر من مقولتها، وطالب أصحابها بأن يعودوا إلى عقلهم ليدركوا خطئها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ

قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ (الفرقان: ٧ – ١٠)، قضية مغلوطة لأن أساس التعامل مع الناس لا بد أن يكون متوازنا، فما يرسل الله رسولا إلا من قومه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾ (الإسراء: ٩٥)، أما لو كانوا بشرا، حتى لو أنزل الله لهم ملكا لصوره في صورة إنسان ولألبسه كما يلبس أهل زمانه ومكانه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩)، كما ينبغي أن يتحدث الرسول كما يتحدث قومه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤) فالقرآن نزل إلى العرب بلسان عربي مبين ليلزمهم الحجة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ (فصلت: ٤٤)، كانت القضايا المغلوطة في الفكر لها أهدافها،

لتكون أسبابا لرفض الدعوة إلى توحيد الله، فكان الرسول من خلال الوحي يناقشهم على أساس العقل والمنطق، ويثبت لهم خطأ النظرية التي يرجعون إليها، ويؤكد لهم أن العقل السليم هو أساس التوازن، وأن الرسالة تعتمد العقل كأساس للدخول في الإسلام. وعلى الجانب الآخر، حتى أولئك الذين فتنوا بالإسلام ولم يكونوا كفارا بل كانوا مسلمين موحدين، ولكنهم فتنوا بالآخرة وأرادوا أن يسرعوا إليها بطريق غير منطقي، لا يتناسب مع طبيعة الإنسان، فمنهم عبد الله بن عمرو الذي قال لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت، يرفض متع الدنيا وزينتها التي أخرجها الله والطيبات من الرزق التي أحلها الله، في سبيل ضمان الآخرة، فلما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بخبره، ناداه ونهاه[1]، وفي رواية قال له: والله إني لأتقاكم لله وأرغبكم إليه، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.(الحديث) هكذا أدرك المسلمون أن المسألة ليست مسألة إغراق وتطرف، كما أنها ليست مسألة تساهل وتفريط، بل موازنة بين أساسين موجودين في الإنسان: الروح والجسد، المادة والمعنى، وعليه أن يوازن

١) صحيح البخاري باب صوم الدهر.

بينهما، وأداته في هذه الموازنة هو العقل، وأن على الإنسان أن ينظر في نفسه وفيما حوله ويلاحظ تطور الأشياء.

لقد اتخذ الفكر الإسلامي وسائل عدة أهمها الحوار الفكري، الذي قام على أسس أفضل من جدل الفلسفة، فاستعمل أدوات أكثر فاعلية، أهمها:

أولا: الكلمة الطيبة وسيلة مثلى للحوار، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ (إبراهيم: ٢٤ – ٢٧) ويقول تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)، ويقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ الإسراء: ٥٣) ويقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ

ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ الفرقان: ٦٣) ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (فاطر: ١٠)، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ الأحزاب: ٧٠).

ثانيا: المعاملة بالمثل ورد الإحسان بالإحسان، يقول تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَاۗ﴾ (النساء: ٨٦)

ثالثا: ضرب الأمثال والرد على الأمثال بالحق والتفسير الأحسن، وعدم استصغار الأشياء في ضرب الأمثال، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ الفرقان: ٣٣) ويقول تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٣) ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ الروم: ٥٨) ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ البقرة: ٢٦) ويقول تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ ﴾ الأنبياء: ٢٤) ويقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ... ﴾ الشورى: ١٦).

رابعا: استخدام الرسائل في الحوار الفكري، يقول تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ... ﴾ النمل: ٢٨)

خامسا: توحيد اللغة والإبانة في الحوار، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ .... ﴾ إبراهيم: ٤)

سادسا: الإسوة من الحضارات السابقة، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الممتحنة: ٦ ٧)

ويقول تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق: ٣٦ ٣٧)

سابعا: الاستفادة من أقوال الخصم، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ١٨) ويقول تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ الزمر: ٥٥)

ضوابط الفكر الإسلامي:

أولا: التذكير أحد ضوابط الفكر، يقول الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ الذاريات: ٥٥)

ثانيا: الصراحة وعدم تحريف الكلام أو إخفاء الحقيقة، يقول تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٥ ٧٦)

ثالثا: عدم الحجاج في الله، والحجاج يكون بالعلم وليس بالغيب، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ...﴾ (البقرة: ١٣٩) ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٥ ٦٦)

ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ....﴾ (الأنعام: ١٤٨)

ويقول تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١

٤) ويقول تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ العلق: ١ ٥)

رابعا: أمة الوسط لها حق الشهادة، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ....﴾ البقرة: ١٤٣)

خامسا: الافعال تصدق الأقوال، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ البقرة: ٢٠٤ ٢٠٦)

سادسا: ضرورة تسجيل الحوار الفكري، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ ....﴾ البقرة: ٢٨٢) ويقول تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾

الطور: ٢ ٣) ويقول تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ القمر: ٥٢ ٥٣) ويقول تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ القلم: ١)

سابعا: الاختلاف آية من آيات الله، من مدركات المفكرين الإسلاميين التي أصبحت منطلقا لكثير من النظريات وجوب الاختلاف، بمعنى أن الاختلاف آية من آيات الله، فقد خلق الله الناس مختلفين رغم كونهم من أب واحد وأم واحدة وجعل كل الكائنات والمخلوقات مختلفة رغم أنه خلقهم بحرفين الكاف والنون، وهكذا فمن الضروري أن يكون هناك اختلاف في الفكر، وقد قيل إنك تستطيع أن تعطي ابنك كل شيء إلا فكرك لأن له فكره الخاص، والذي قد يختلف معك كلية. وما صراع الأجيال إلا اختلاف الفكر بينها، ولا يرضى صاحب الفكر أن يفرض عليه فكر دخيل حتى المجنون لا يرضيه إلا فكره، ولو كان فاقدا للعقل، وهذه مسألة منطقية، يمكن أن تنسحب حتى على الدين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٥٦) لأن الناس ليسوا

سواسية، حتى صاحب الرسالة لا يستطيع أن يهدي من يشاء، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ القصص: ٥٦) لأن المسألة ليست مسألة اتفاق، لكن الله يهدي من يشاء لأنه الخالق يعرف خبايا خلقه ومصادر فكرهم وما توسوس به أنفسهم، وأن لكل إنسان قدرة وإمكانية، وعليه أن يتوجه إلى ما يستطيعه. ومن هنا كانت نظرية إثبات العقائد عن طريق العقل بابا فتح لنشر الإسلام في غير العرب، في شعوب لها فكر مختلف وثقافة مختلفة وحضارة مختلفة وتوجهات مختلفة عن العرب. ومن ثم تكون مخاطبتهم من خلال ما يتميزون به أي العقل وأدواته لا النصوص.

فليس من الضروري أن ينتهي الحوار بالاتفاق أو بنتيجة فيها إكراه، فالاختلاف في الرأي أيضا آية من آيات الله واختلاف الأئمة رحمة للناس، يقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ...﴾ البقرة: ٢٧٢) ويقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ....﴾ البقرة: ٢٥٦) ويقول تعالى: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ الحج: ٦٨ -٦٩) ويقول تعالى:

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ النمل: ٧٠) ويقول تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ هود: ١١٨ ١١٩) ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ...﴾ فاطر: ٢٨)ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ ...﴾ فصلت: ٤٥) ويقول تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ الزخرف: ٦٥)

ثامنا: وقف الحوار الفكري عند الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، يقول الله تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ النساء: ١٤٠) ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنعام: ٦٨)

وعند الإفتراء على الله الكذب، يقول تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ

قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الأنعام: ٩٣)

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ .... ﴾ العنكبوت: ٦٨) ولا جدال عن الخونة، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ النساء: ١٠٧) ويقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال: ٥٨) وعند الجهر بالسوء، يقول تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ ﴾ النساء: ١٤٨) ومع لهو الحديث، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ القصص: ٥٥ ويقول تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ ....﴾ لقمان: ٦)

تاسعا: الوقوف على نقاط الضعف في الطرف الآخر للحوار الفكري، وكشفها، وضرب الأمثال لها، يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا
كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ
إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ
ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ
مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ
ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا
يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ البقرة: ٨ ١٨)

عاشرا: عدم نكران ما يملكه الطرف الآخر من حجج، وعدم جحود المعروف، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ

لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ البقرة: ١١٣) ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ٤٢)

حادي عشر: عدم الاعتداء، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ البقرة: ١٩٠) وعدم الخوف من الحوار مع الضالين في الوقت نفسه، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ المائدة: ١٠٥) ويدخل في هذا الإطار عدم سب المحاورين، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ ﴾ الأنعام: ١٠٨) والأبعد من ذلك غض الصوت في الحوار، يقول تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ لقمان: ١٩) ويدخل في ذلك أيضا عدم السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وكثيرا من سوء الظن، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ

ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ ....﴾ الحجرات: ١١ ١٣) ويدخل في ذلك عدم التفاخر، يقول تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ....﴾ النجم: ٣٢) وعدم التقعر في الحوار، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ القمر: ١٧) وعدم تبادل التهم، يقول تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ ق: ٢٧ ٢٨)

ثاني عشر: التحكم في ردة الفعل، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ....﴾ يونس: ٦٥) ويقول تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾ الأنعام: ٣٣ ٣٥)

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ الحج: ١٥) ويقول تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يس: ٧٦) ويقول تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ المزمل: ١٠) ويدخل في ذلك إعطاء كل شيء قدره، يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩)

الأطر الإسلامية للفكر:

لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى العديد من الأطر التي يمكن أن يدور فيها الفكر، من خلال موضوعات تتفق مع الفطرة الإنسانية، مما يجعلها مقبولة لدى جميع أطراف الحوار الفكري، كما تتسم بالجدية، ويحقق الحوار حولها منافع كثيرة للبشرية قاطبة، من أبرزها ما يلي:

أولا: حرية العبادة، وحماية دور العبادة، وحرمتها ورعايتها وتوفير الأمن والأمان لروادها، يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ البقرة: ١١٤) ويقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ

ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ... ﴾ البقرة: ٢٥٦) ويقول تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ ... ﴾ المائدة: ٢)

ثانيا: تحقيق السلام الشامل والدائم والعادل، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ البقرة: ٢٠٨)

ثالثا: الاقتصاد والتعاملات المالية، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ... ﴾ البقرة: ٢٧٥ ٢٧٦) ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ

تُفۡلِحُونَ ﴾ آل عمران: ١٣٠) ويقول تعالى: ﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ....﴾ النساء: ١٦١)

رابعا: عدم حبس العلم والتقنية، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ آل عمران: ١٨٧) ويقول تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ...﴾ القصص: ٧٨)

خامسا: وقف الحملات الإعلامية المغرضة ضد الحضارات، يقول تعالى: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ...﴾ النور: ١٥ ١٩)

سادسا: تكثيف التعاون البناء لمصلحة البشرية، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ...﴾ المائدة: ٢)

إنجازات الفكر الإسلامي:

أولوية القراءة والبحث:

إن أول ما فهمه أصحاب هذا الفكر من المسلمين الأوائل هي تلك الفكرة التي نزل بها الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما كانت أول كلمة نطق بها جبريل وأراد أن يعلمها للرسول هي كلمة اقرأ، وقالوا إن الحوار الذي دار بين جبريل والرسول الكريم يؤكد أن القراءة لم يقصد بها المفهوم السطحي الذي يعني مطالعة المتون وقراءة السطور، بل هو أوسع من ذلك، لأن جبريل وربه الذي أرسله بالوحي يعلم أن محمدا كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك بادره بقوله اقرأ، ورد عليه بأن ما أنا بقارئ، فكرر عليه القول ثلاث مرات، وكان يضمه حتى كاد يهلك، للتأكيد على أن مفهوم هذه القراءة ليس كما يتخيله البشر، وليس

كما فهمه الرسول عليه السلام في البداية، وكانت الضمة المؤلمة لكي لا ينسى هذا المعنى الذي أوضحه بعد ذلك بقوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ العلق: ١ - ٥) وهنا وعى الرسول الكريم الدرس، وعلم المسلمون أن القراءة في حد ذاتها نوع من التفكر والتبصر والتدبر، ليست قراءة في نصوص معينة، ولكن الكون كله كتاب مفتوح للإنسان يطالعه وتستعمل فيه ما أعطاه الله من إمكانات ليصل إلى الفكر الذي أراده الله أن يصل إليه، حيث أكد الله سبحانه وتعالى أن كل إنسان يولد جاهلا ولا يعرف شيئا بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ النحل: ٧٨) وهكذا يزود الله البشر بأدوات المعرفة، أي السمع والبصر والفؤاد أداة التعقل والتدبر والفكر، مما يستوجب شكر الإنسان، وعلى هذا فإن أدوات القراءة ليست هي الشفاه، ولكنها تبدأ من السمع والبصر

وتنتهي بالتعقل، ثم الفكر بالقلب، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)

ويرى الفكر الإسلامي أن أمر الله تعالى بالقراءة "اقرأ باسم ربك الذي خلق" هو البداية الصحيحة والطريقة المثلى للتنمية الفكرية، والإعلاء من قيمة العقل والبحث العلمي، وتفعيلهما سلوكا حضاريا في واقع الحياة، وذلك لحماية الإنسان من التلوث الفكري والبيئي الذي يقضي على فاعليته وكرامته وعزته.

إن الحضارة سلوك أخلاقي ينتج عن تفاعل بين عالم القيم المادية وعالم القيم الأخلاقية لإقامة مجتمع الحق والعدل الذي يستوعب ويحترم مختلف هويات البشر.

ولما كان الإنسان هو صانع هذه الحضارة الحامل للحقائق والمعارف والحكم، كان من الظلم أن نتجاهل التفاعل بين قيمه الأخلاقية وقيم عالمه المادي. ولما كانت عناصر هذا التفاعل وآليات حدوثه يجب أن تنتقى على أكمل وأحسن وجه ليحقق ثماره المرجوة، كانت المرجعية الإلهية ضرورة عقلية قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِى

خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٧٨) فلا حضارة حقيقية في غيبة الوحي الإلهي الضابط لها الحاكم لتطورها.

لذلك كان من الضروري أن نعيد قراءة الكون والإنسان والقرآن قراءة صحيحة لصالح أمل وتحديات التغيير قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾ (الرعد: ١١)

أولا: قراءة للكون: إن الكون هو آية الله العظمى الذي إذا توجهنا إليه بالنظر والتفكر والدراسة وحسن الفهم وضبط السنن ومعرفة قوانينه وتسخيرها أمكن الاستفادة منه لإحداث التوازن الطبيعي للحياة الإنسانية. إن التواصل الوثيق بين الإنسان والكون هو القاعدة التي يقيم عليها اهتمامه بالمحافظة على البيئة من التلوث، هذه المحافظة التي تستمد قوتها من عقيدة إيمانية راسخة توجب المحافظة على كوكب الأرض ورعايته.

ثانيا: قراءة للإنسان: إن معرفة الذات أساس كل معرفة، يليها مرحلة أرقى حكمة وهي تطلع الفطرة الإنسانية إلى القيم الدينية والأخلاقية والجمالية حيث تمثل هذه القيم قوة نفسية واجتماعية عظيمة لا بديل للإنسان عنها للوصول إلى حياة

أفضل نحو تحقيق أهدافه، هذا بالإضافة إلى ما تمده به هذه القيم من غايات غيبية تجيب على تساؤلات مسجلة في وعيه الباطني.

إن امتثال الإنسان للإرادة الإلهية لا يعني إلغاء دوره ككائن خلقه الله لعمارة الأرض على أساس حرية الاختيار، هذه الحرية التي تقوم على ما فطره الله تعالى عليه من استعداد لقبول الحق والباطل، الخير والشر، الهدى والضلال، والذي هو محل البتلاء.

إن الإنسان مع تفوقه العلمي والتكنولوجي عن أي عصر مضى، ومع هذه الشبكات المعلوماتية المفتوحة على العالم بأسره، ومع هذه التحديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تشغله إلا أنه بات أكثر تعرضا للخوف والقلق من أي وقت مضى. إنه اليوم يجري جري الوحوش من أجل اللحاق بركب التطور وتحقيق أكبر عائد مادي يحقق له سعادته، فلا وقت لديه تحت قهر هذه التحديات لإعادة النظر والتفكير في نفسه وقيمه وأخلاقه مما سيعرضه لا محالة لمخاطر عظمى وهلاك محقق. إن التواصل إلى هذا الفهم للكون والإنسان يستلزم مسيرة تصاعدية في ذات الإنسان.

ثالثا: قراءة للقرآن: إنه لا تعارض بين القرآن وإيقاع حركة الحياة المتجدد، ولا تصادم بين حركة الدين وحركة الإنسان، وأن ما حمله القرآن من وعود لإصالح الوضع الإنساني في شتى مجالات الحياة حقيقة قرآنية لا شك في تحققها، إذا ما أحسن التعامل مع النص القرآني وتفاعله مع منظومة التواصل المعرفي، لأنه تنزيل من رب العالمين. إن الشريعة القرآنية لا تصادر عقيدة أو رأي أو ثقافة أمة إلا إذا خرجت عن حدودها ورفعت راية الإفساد في الأرض وهنا سيشترك معه في المصادرة كل عقلاء العالم من أصحاب الشرائع الآخرى.

إن المنهج القرآني دعوة عالمية للتفكير والعمل الصالح والتخطيط وإعلاء القيم الأخلاقية ونقد الذات والتسامح ونصرة المظلومين وإقامة الحق والعدل ونشر السلام بين الناس، إلى آخر القيم الأخلاقية التي جاءت بها هذه الشريعة العالمية الخاتمة.

لقد انطلق المسلمون الأوائل في تحديد كيفية الفكر ومنهجه وإطاره، فلم يخرجوا عن إطار الإسلام واستخدموا الأدوات التي أتيحت لهم، وبدأوا من حيث بدأ الوحي، ووجدوا أن أول واجب ينبغي أن يطرحوه للبحث، هو إعداد تعريف عقلي للاسلام، أي إثبات العقائد الإيمانية في الإسلام عن طريق العقل وليس عن

طريق النقل أو النصوص، واستفادوا في ذلك من آيات القرآن الكريم ومن السنة النبوية، وكانوا مؤهلين لذلك، لأن العرب عندما حاورهم القرآن حاورهم بالعقل، وكان العرب أهل بيان وأهل حكمة، مما جعل المعجزة التي نزلت للنبي الخاتم كانت من نفس جنس ما يملكه الناس، أي القرآن المبين من نفس مادة القراءة، فيه آيات بينات تتناسب مع فصاحة العرب وقدرتهم على الحوار والجدل العقلي والآنشاء والشعر، فكانت آيات القرآن تحديا لما يملكونه، حتى يثبت عجزهم وانحرافهم عن الطريق القويم ويوجههم إلى ما ينبغي لهم، حتى يكونوا جديرين بقيادة العالم وحمل الرسالة الخاتمة، كما أثبت لهم قدسية الكلمة وقيمتها، وهم أساسا يدركون ذلك، فجعل لهم الفاصل بين الإسلام والكفر كلمة يقولونها، وهي أشهد أن لا إله الإ الله وأن محمدا رسول الله. وعندما كانوا يجافون المنطق في الحوار كان يستنكر عليهم ذلك بقوله: أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يبصرون؟ أفلا يفقهون؟ أفلا يتذكرون؟ وهكذا.

استفاد المسلمون الأوائل من هذا التوجيه في إقامة فكر جديد يوجه سلوكهم وحضارتهم إلى رقي دائم، ميزة الفكر أنه مقياس تقدم الشعوب، فكلما ارتقى الفكر ارتقت الشعوب، ونظروا إلى التيارات الفكرية التي كانت موجودة، واستبانوا

معايبها، فأدركوا مثال أن خروج اليونانيين عن إطار محبة الحكمة الذي هو معنى تسميتهم للفكر بالفلسفة أدى بهم إلى السفسطة، أي الجدل من أجل الجدل، وهذه الطريقة تخرج من الحق إلى الباطل، لأن الإنسياق في الجدل دون إطار يخرج بهم من الحق إلى الباطل، وقد استفاد المفكرون المسلمون أيضا من سير الأنبياء في هذا الصدد، فعندما كانوا يخرجون عن الإطار كان الله سبحانه وتعالى يعيدهم إليه، مثل موسى عليه السلام عندما طلب أن يرى ربه بعد أن صار كليمه، فأثبت الله له عمليا ناتج خروجه عن الإطار بأن تجلى للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا، فلما تبين له قال إني تبت إليك، وكذلك فعل مع نوح عليه السلام عندما طلب من الله أن يحي ابنه الكافر، فرده الله بأن هذا الطلب عمل غير صالح، لأن ابنه بالكفر خرج عن الإطار فلم يعد ابنا للنبي نوح، وطلب منه الله أن لا يسأله ما ليس بحق، وهكذا وعي المفكرون المسلمون الدرس، فوضعوا الإطار الصحيح لحركة الفكر.

الفكر السياسي الإسلامي:

رغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بالمفهوم السياسي حاكما مطلقا باعتباره يتلقى الوحي من الله تعالى، ومن ثم فهو لا ينطق عن الهوى، إلا أنه عندما نزل عليه الوحي بقول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩)، أكد ذلك بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ...﴾ الشورى: ٣٨) أخذ الرسول عليه السلام يدرب أصحابه على هذا المبدأ الإلهي، ويعقد مجالس الشورى، ويستشيرهم في المواقف الصعبة، والأمثلة كثيرة على هذا، وليس أدل من أخذه برأي الصحابة في مسائل تتعلق بتقرير المصير، مثل غزوة بدر وغزوة الأحزاب، وفتح خيبر، بل إنه علمهم الجدل وفق منهج الله، عندما أمره بقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ النحل: ١٢٥) وغيرها من الآيات.

إن فكرة الشورى ونموذجها الأول الذي طبقه الصحابة فور وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اجتماع سقيفة بني ساعده، كان مصدر إلهام للمفكرين الإسلاميين لتطوير الفكرة إلى نظريات للحكم الإسلامي، ثم تكوين الأحزاب السياسية الحقيقية التي تصدر عن فكر إسلامي أصيل، وهو رغم السلبيات التي

ظهرت في تطبيقه، أحد أهم منجزات المفكرين الإسلاميين الأوائل، وقد كان الصحابة أصحاب فكر سياسي تجلى في عهد الخلفاء الراشدين، وقد دلت الأحداث التي وقعت في عهدهم وأسلوب معالجتها على رقي هذا الفكر، ومن أمثلتها: الموقف من حركة الردة التي شهدت خلافا في الرأي بين الصحابة الذين انقسموا إلى فريقين، فريق يرى التنازل عن الزكاة لفترة محدودة حتى انتهاء الأزمة من أجل استقرار الأمور في الدولة الوليدة، وكان عمر بن الخطاب على رأس هذا الفريق، وفريق يصر على عدم التساهل في الزكاة لأن هذا الادعاء كاذب ووراءه أغراض سياسية، ولو أدى ذلك إلى الحرب، وكان الخليفة أبو بكر الصديق على رأس هذا الفريق، وقد انتصر رأيه، ونجح المسلمون في القضاء على حركة الردة. ومن أمثلة فكر الصحابة أيضا تطوير شكل البيعة بعد أبي بكر، ثم التعامل سياسيا مع أحداث الفتنة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، والتنافس السياسي بعد عثمان، ثم تداعيات موقعة الجمل، والشعارات التي رفعت في موقعة صفين وقميص عثمان، ثم واقعة التحكيم، وحرب الخوارج كلها تعتبر نموذجا للفكر السياسي الجدير بأن يدرس ويحلل، والتي نتج عنها الفرق والأحزاب السياسية. كان نجاح معاوية بن أبي سفيان في إقامة الدولة الأموية في دمشق

بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الخلفاء الراشدين، إيذانا بتحول كبير في الفكر السياسي الإسلامي، وقد أدى إلى هذا التحول اتساع رقعة الدولة الإسلامية مع الفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين، فالشعوب التي دخلت الإسلام كان لها فكرها وعاداتها وتقاليدها التي أثرت على نظرتها لكثير من القضايا الإسلامية، مع حداثة إسلامها، مما اقتضى تطوير أسلوب الحكم والسياسة عما كان متبعا في عهد الخلفاء الراشدين، فكانت فكرة الدمج التي جعلت الدولة الأموية تشجع القبائل العربية على الهجرة إلى المناطق المفتوحة، لتكون تجمعات عمرانية متكاملة أصبحت نموذجا حيا للفكر الإسلامي والحركة الإسلامية، واستتبع ذلك أن تعطى القيادة لشخصيات عربية من هذه القبائل تستطيع التوجيه، ويكون ولاؤها للحكومة المركزية في دمشق، والواقع أن الدولة بهذه الطريقة قد استطاعت أن تشكل جيوشا مشتركة من العرب وأبناء الولايات المفتوحة لاستكمال حركة الفتح الإسلامي ونشر الدعوة، وهو ما أدى بتأثيره الثقافي إلى ظهور حضارة إسلامية مشتركة، ومن ثمارها أيضا ظهور اللغة الأوردية نسبة إلى معسكر الفتوحات. وإذا كان الفكر السياسي الأموي قد قاد إلى مبدأ تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة في الحكم والإدارة، فإن هذا كان ضروريا في تلك الفترة وتحت ضغط ظروف

الفتوحات الإسلامية، كما كان منطلقهم في هذا الأمر منطلقا إسلاميا، إلا أن تساهلهم في اتخاذ المبررات وتفسير النصوص الدينية أدى إلى سلبيات وأخطاء وقعت في التطبيق، كان من أكثرها ضررا قهر المعارضة، والصدام المسلح مع الجماعات والأحزاب السياسية، وهو ما أدى إلى ضعفها السياسي، فرغم أن الدولة الأموية كونت إمبراطورية كبيرة إلا أنها لم تستمر في الحكم إلى وقت طويل، وأبان سقوطها عن سلبيات فكرة الحكم عند الأمويين. وقد أثارت الدولة الأموية خلال فترة حكمها قضية التنافس الشعوبي على الحكم، وهو ما أوجد ظاهرة الشعوبية، وكان معنى الشعوبية أي الإنتصاف للجنس، ردة فكرية حقيقية قادتها الأحزاب السياسية، لأنه رغم تطور فكرة الشورى ودعمها للوحدة الإسلامية، كانت حركة الشعوبية شرخا في جدار هذه الوحدة، حيث شجعت على التعصب من خلال الفخر بالأصل والنسب والتاريخ والإنجازات الحضارية والعسكرية والثقافية القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام، مما أدى إلى نوع من المبارزة الكلامية والعقلية، تمت خلالها الاستعانة بمصادر الفكر الإسلامي وهي آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والمغالاة في ذلك إلى حد وضع بعض الأحاديث المكذوبة، بحيث امتد أثرها إلى التأريخ والأدب، خاصة الشعر، حيث اشترك فيها كبار

الكتاب والشعراء الذين اتخذوا مواقف متباينة، فإذا كانت التيارات الفكرية الإسلامية قد تبلورت مع اكتسابها أسسا عقلية صحيحة تتفق مع المنطق السليم، شكلا ومضمونا، وفي الإطار العام للاسلام وهو النظام الفكري الذي تم تأسيسه على مبدأ فكري هو حق الاختلاف، والذي أصبح المظلة الواسعة التي تموج تحتها التيارات الفكرية والفلسفية في العالم الإسلامي، إلا أن اتجاه نظام الحكم إلى مناهضة هذه التيارات بالقوة، واستخدام السلاح، جعل هذه التيارات تلجأ إلى نفس الوسيلة، وتكوين أجنحة عسكرية للأحزاب السياسية، فتمزقت المظلة، وظهرت اتجاهات بلا عودة، مثل دعوة الشيعة للإمامة في مواجهة الخلافة، فوجدت مدرستين مختلفتين تماما في منطقهما السياسي، سواء في شكل الحكم أو مواصفات الحاكم، فكان نظام البيعة، رغم أنه أصبح وراثة مقنعة، في مواجهة نظام الوراثة الصريحة، والولاية الطبيعية في مواجهة الولاية التكوينية ثم الولاية الاعتبارية. وأدى الصدام الذي وقع بينهما إلى أحداث دامية، وهي رغم قسوتها على المجتمع الإسلامي إلا أنها ساعدت على نضج الفكر السياسي.

لقد كان قيام الدولة العباسية من خلال تلك الأحداث الدامية، فقد خرجت من أحزاب المعارضة، ثم أصبحت صاحبة الأغلبية، وكان من الواضح أن الفكر

السياسي الإسلامي أخذ يتحول مع ازدهار الحضارة والثقافة وحركة الترجمة في ظل الدولة العباسية، بعد أن اتخذ منحنا جديدا جعله يمتزج بالفلسفة، حيث قام العباسيون بتغيير المفاهيم السياسية، وطرحت قضية الإدارة من خلال أصحاب الثقة أو أصحاب الخبرة، بإضافة أصحاب المصلحة، والذي أعاد هذه القضية للظهور أن الدولة العباسية كانت مدينة لعدد من أحزاب المعارضة التي أوصلتها إلى الحكم، مما جعل فكرة اقتسام السلطة تظهر لأول مرة في هذه الدولة، حيث كانت هذه الأحزاب لها انتماءات شعوبية، فقد ظهرت هذه الأحزاب بقوة على الساحة السياسية مدعومة بقوة شعوبية، وخاصة الأحزاب التي تنتمي إلى الفرس أو إلى الترك. وقد جرت محاولات لتطبيق فكرة أن الخليفة ملك يملك ولا يحكم، أو تحديد سلطات الخليفة، ومنح الوزير سلطات كانت للخليفة، مما جعل ازدواجية السلطة محل أخذ ورد في بداية عهد الدولة العباسية، حتى تحولت إلى فكرة اقتسام السلطة، وقد أغمض الخلفاء أعينهم عنها في بداية الأمر، ولكن عندما أصبحت الوزارة تنتقل بنفس طريقة انتقال الخلافة، حدث الصدام بين طرفي السلطة، وهما الخليفة والوزير، فوجدت عائلات شعوبية فارسية وتركية تتولى الوزارة مع أسرة الخلفاء العربية، وغالبا ما يكون النصر في هذا الصدام حليفا للخلفاء بسبب

الشرعية التي حصل عليها الخلفاء بالبيعة، إلا أن هذا الإنتصار كان يسفر عن تغير أسرة الوزارة، ولا يؤدي إلى انفراد الخلفاء بالسلطة، أو سقوط فكرة اقتسام السلطة، مع وجود الشعوبية في الحكم والإدارة، وقد أصبحت هذه السياسة نهائية مع هزيمة الأمين بن هارون الرشيد ومقتله، وتولي المأمون الخلافة العباسية.

لكن الظاهرة الجديرة بالملاحظة في هذه الفترة هو استخدام السلطة لتغليب فكرة فلسفية أو سياسية على فكرة أخرى، فتدخل الحاكم لنصرة فكرة على فكرة كان له مردود سلبي على المجتمع الإسلامي، مثل ظهور ما عرف بحركة الزندقة، ردا على معارضة فكرة خلق القرآن، ولكن هذا لم يمنع من التنافس الفكري والصراع الفكري الذي كان دائما لصالح تطور الفكر الإسلامي، إلا أن استخدام الأطراف الفكرية والسياسية للقوة جعل بعضا منها يصدر عن أفكار مسبقة، ثم يبحث لها عن أسانيد من القرآن والسنة مع استخراج المعاني بعيدا عن مناسباتها التي نزل الوحي بشأنها، أو يلجأ إلى أساليب غير شرعية لدعم فكرته وشيوعها وإكسابها تعاطفا جماهيريا، مثل استخدام التأويل في تفسير النصوص واستخراج الشواهد والأدلة والبراهين، أو محاولة تغييب العقل بوسائل مختلفة منها ترويج الشائعات والدعاية المضادة، أو الاغتيال السياسي، كما فعلت فرق الاسماعيلية والباطنية

والحشاشين، بعد أن خرجت عن إطار الفكر الإسلامي، رغم أنها محسوبة على الإسلام. يضاف إلى ذلك قيام الدويلات المستقلة بمناطق مختلفة من العالم الإسلامي، في مواجهة الحكومة المركزية في العصر العباسي الثاني، بل وصل الأمر إلى قيام خلافة أخرى منافسة للخلافة العباسية في بغداد، هي الخلافة الفاطمية في القاهرة. لقد أدى الخروج عن إطار الفكر الإسلامي إلى سيطرة العبثية على هذا الفكر، مما أضعف المجتمعات الإسلامية والحكومات التي تديرها، ورغم أن ذلك كان ينذر بكارثة، إلا أن المفكرين الإسلاميين لم يتداركوا الأمر، حتى سقطت الخلافة العباسية، ووقع العالم الإسلامي في قبضة المغول والتتار والصليبيين.

علم الكلام:

لقد كان المفكرون الأوائل موفقين عندما قرروا إثبات العقائد الإيمانية عن طريق العقل، كتجربة لنظرية فكرية إسلامية، فهم بذلك لم يخرجوا عن الإسلام، لأن الإسلام مدخله العقل، فهناك فرق بين الإسلام والإيمان، الإسلام تدخله بعقلك، ثم تسلم لأوامر الله، وهذا هو الإيمان، حيث حاور الله المشركين بالعقل وألزمهم الحجة ليدخلوا في الإسلام، ولكنه أمر المؤمنين بالتكليف، فإذا لم ينفذوا لا

يكونوا قد تجاوزوا الإسلام بالإيمان، يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ...﴾ الحجرات: ١٤) لذلك أكد المفكرون على ثلاث درجات للفكر الإسلامي، درجة تساوي درجة الإسلام ودرجة تساوي درجة الإيمان ودرجة تساوي درجة الإحسان، واستلهموا ذلك من السيرة، فقد روي أن رجلا شديد البياض يرتدي ثوبا ناصع البياض، جلس بين يدي الرسول الكريم ووضع يديه على فخذيه، وسأل: يا محمد دلني على الإسلام، فقال الرسول عليه السلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ما استطعت إليه سبيلا، فعاد الرجل وسأله: وما الإيمان؟ قال عليه السلام: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله، فعاد الرجل وسأله: وما الإحسان؟، فقال الرسول الكريم: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. ثم انصرف، فالتفت الرسول عليه السلام إلى أصحابه وقال: أتدرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: إنه جبريل جاء يعلمكم دينكم.(الحديث)[1].

١) صحيح البخاري. كتاب الإيمان باب سؤال جربيل.

من هنا كانت الدرجات الفكرية الثلاث، الدرجة الأولى تلمس الجزئيات في نفسه وفيما حوله، وهي مرحلة النظر، ومصدر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ الذاريات: ٢٠ -٢١)، لذلك جعلوا كل ما في الكون وما في النفس البشرية وما يتعلق بهما ميدانا للنظر والبحث، ومن ثم لم يستبعدوا شيئا من بحثهم، حتى ما كان يتناقله الكفار، ووضعوا فرضية أساسية، هي: أن ناقل الكفر ليس بكافر، بمعنى أنهم لا يستبعدون شيئا من البحث، واستدلوا على ذلك أيضا من آيات القرآن الكريم، حيث أن الله سبحانه وتعالى كان يذكر ما يردده الكفار والمنافقون واليهود حتى في سب ذاته العلية، مثل قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ...﴾ المائدة: ٦٤)، واستفادوا من سياق الآية في معالجة المقولات المخلوطة والمجافية للمنطق السليم، حيث رد الله سبحانه الإساءة بالإساءة وهذا عدل، ثم بين الأسباب وهي مجافاة المقولة للمنطق والعقل السليم. كان من خطوات الفكر الإسلامي الصائبة أيضا تحديد مسيرة الحضارة، وكان تحديدا معجزا رغم بساطته، حيث انطلق من الفطرة السمحة البسيطة، نظر المفكرون إلى الإنسان ونظروا إلى

الظواهر الكونية، فوجدوا اتفاقا كاملا في مراحل تطورهما، الإنسان يولد رضيعا ضعيفا ثم يكون طفلا فصبيا فشابا يافعا ويقوى فيكون رجال، ثم يضعف ثانية فيكون كهلا فشيخا ثم يموت، ليفسح المجال لطفل يولد، وهكذا الشمس تشرق ضعيفة وتظل تقوى في حلتها حتى تصل إلى كبد السماء وقد اكتملت قوتها وحرارتها، ثم تنحدر فتضعف تدريجيا في مسيرتها للزوال ثم تغرب لتشرق من جديد. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ... ﴾ الروم: ٣) لذلك أدركوا أن كل ما ينتمي إلى الإنسان، وكل ما ينتمي إلى الكون لا بد أن تكون له نفس المسيرة، فالحضارة التي هي من صنع الإنسان تسير أيضا في هذا المنحنى من حالة ضعف وعجز، ثم تستجمع أسباب قوتها فتزدهر، وبعد أن تصل إلى قمة ازدهارها تعود إلى الضعف والإنحلال، لتفسح المجال لحضارة جديدة تكمل مسيرة التطور.

المعتزلة:

المعتزلة اسم يطلق على فرقة ظهرت في الإسلام في القرن الثاني الهجري ما بين سنة ١٠٥ وسنة ١١٠هـ، بزعامة رجل يسمي واصل بن عطاء الغزال. نشأت هذه الطائفة متأثرة بشتى الاتجاهات الموجودة في ذلك العصر، وقد

أصبحت المعتزلة فرقة كبيرة تفرعت عن الجهمية في معظم الآراء، ثم انتشرت في أكثر بلدان المسلمين انتشارا واسعا، وعن كثرتهم وانتشارهم يقول الشيخ جمال الدين القاسمي "هذه الفرقة من أعظم الفرق رجالا وأكثرها تابعا، فإن شيعة العراق على الإطلاق معتزلة، وكذلك شيعة الأقطار الهندية والشامية والبلاد الفارسية، ومثلهم الزيدية في اليمن، فإنهم على مذهب المعتزلة في الأصول كما قاله العلامة المقبلي في "العلم الشامخ"، وهؤلاء يعدون في المسلمين بالماليين. بهذا يعلم أن الجهمية المعتزلة ليسوا في قلة، فضلا عن أن يظن أنهم انقرضوا وأن لا فائدة في المناظرة معهم، وقائل ذلك جاهل بعلم تقويم البلدان ومذاهب أهلها[١]." وهناك روايات يذكرها الباحثون في كيفية نشأة المعتزلة :إذ يرى بعض العلماء أن أصل بدء الاعتزال كان في زمن الخليفة الراشد علي رضي الله عنه، حينما اعتزل جماعة من الصحابة كانوا معه السياسة، وتركوا الخوض في تلك الخلافات التي نجمت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وهذا القول باطل لا صحة له، وقد أيده الشيخ محمد الطاهر النيفر.

---

١) تاريخ الجهمية ص٥٦.

يرى أكثر العلماء أن أصل بدء الاعتزال هو ما وقع بين الحسن البصري وواصل بن عطاء من خلاف في حكم أهل الذنوب[1]. وقد ظهر قرن الاعتزال بمبادئه المعروفة من البصرة التي كانت مسكنا للحسن البصري ثم انتشر في الكوفة وبغداد، ومنها إلى شتى الأقطار والآفاق. ومما يذكر للمعتزلة أنهم كانوا شوكة قوية في صد مبادئ الزندقة، وقاموا بجهود كثيفة لنشر الإسلام، إلا أنهم لم يحسنوا التصرف إزاء القول بخلق القرآن وغيره من المبادئ التي عجلت باضطهادهم بعد قوتهم وشدة جانبهم.

لقد تفرقت المعتزلة فرقا كثيرة، واختلفوا في المبادئ والتعاليم، ووصلوا إلى اثنين وعشرين فرقة، إلا أنه يجمعهم إطار عام وهو الاعتقاد بالأصول الخمسة: التوحيد على طريقة الجهمية، والعدل على طريقة القدرية، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على طريقة الخوارج.

ويرجع سبب التسمية المعتزلة إلى اعتزال أول زعيم لهم وهو واصل ابن عطاء الغزالي إلى حلقة الحسن البصري حينما ألقي رجل سؤالا عن مرتكبي الذنوب فبادر واصل إلى الجواب قبل أن يجيب الحسن، ومن هنا تطور الأمر إلى

---

١) محمد الطاهر: أهم الفرق الإسلامية، ص٣٣.

اعتزال واصل ومن معه حلقة الحسن البصري فسموا معتزلة على سبيل الذم من قبل المخالفين لهم، على أن هذا التعليل لتسميتهم ليس أمرا متفقا عليه بل هناك عدة تعليلات واعتراضات وأجوبة أخرى. وقد أخذت المعتزلة مبادئ كثيرة عن الجهمية، فقد أخذت القول بنفي رؤية الله تعالى ونفي الصفات والقول بخلق القرآن.

تسمية المعتزلة جهمية: ولهذا الاتفاق بين المعتزلة والجهمية في تلك المسائل العقدية، ولسبق الجهمية في الظهور، أطلق العلماء اسم الجهمية على المعتزلة، وذلك لأن المعتزلة هم الذين احيوا آراء الجهمية في مبدأ ظهورهم، حيث جاء المعتزلة ونفخوا في رمادهم وصيروها جمرا من جديد، ومن هنا استحق المعتزلة أن يطلق عليهم جهمية. فالجهمية أعم من المعتزلة فكل معتزلي جهمي، وليس كل جهمي معتزليا.

تسميتهم بالقدرية: بسبب موافقتهم القدرية في إنكار القدر وإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم، وهم لا يرضون بهذا الاسم ويرون أنه ينبغي أن يطلق على الذين يقولون بالقدر خيره وشره من الله تعالى لا عليهم، لأنهم لا يقولون بذلك، بل يقولون بان الناس هم الذين يقدرون أعمالهم. ولكن ابن قتيبة يرد عليهم ويرى أن

نفي المعتزلة للقدر من الله تعالي وإضافته إلى أنفسهم يوجب أن يسموا قدرية، لأن مدعي الشيء لنفسه أحق أن ينسب إليه، وكان أول المتكلمين في القدر والمقررين له معبد الجهني وغيلان الدمشقي.

من أسمائهم الثنوية والمجوسية: وهم ينفرون من هذا الاسم، والذي حمل المخالفين لهم على تسميتهم به هو مذهب المعتزلة نفسه، الذي يقرر أن الخير من الله والشر من العبد، وهو يشبه مذهب الثنوية والمجوس الذي يقرر وجود إلهين: أحدهما للخير والآخر للشر.

الوعيدية: وهو ما اشتهروا به من قولهم بإنفاذ الوعد والوعيد لا محالة، وأن الله تعالى لا خلف في وعده ووعيده، فلابد من عقاب المذنب إلا أن يتوب قبل الموت.

المعطلة: وهو اسم للجهمية أيضا ثم أطلق على المعتزلة لموافقتهم الجهمية في نفي الصفات وتعطيلها وتأويل ما لا يتوافق مع مذهبهم من نصوص الكتاب والسنة، وإذا كانت تلك الأسماء لم يرتاحوا إليها ولا يحبون التسمية بها فإن هناك أسماء أخر اختاروها لأنفسهم وأخذوا يدللون على الافضل.

والمعتزلة حينما رأوا ولع الناس بتسميتهم به أخذوا يدللون على أنه اسم مدح بمعنى الاعتزال عن الشرور والمحدثات واعتزال الفتن والمبتدعين على حد قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ (المزمل: ١٠).

أهل العدل والتوحيد أو "العدلية": والعدل عندهم يعنى نفي القدر عن الله تعالى، أو أن تضاف إليه أفعال العباد القبيحة، والتوحيد عندهم يعنى نفى الصفات عن الله تعالى، وتسميتهم بالعدلية اسم مدح اخترعوه لأنفسهم.

أهل الحق: لأنهم يعتبرون أنفسهم على الحق ومن عداهم على الباطل.

الفرقة الناجية: لينطبق عليهم ما ورد في فضائل هذه الفرقة.

المنزهون الله: لزعمهم حين نفوا الصفات أنهم ينزهون الله، وأطلقوا على من عداهم وخصوصا أهل السنة أسماء جائرة كاذبة مثل: القدرية – المجيزة – المشبه – الحشوية – النابتة.

وللمعتزلة – كغيرهم من الفرق الكلامية – آراء وأفكار ومعتقدات كثيرة تحتاج دراستها إلى مجلدات، غير أنه يمكن عرض أهم آرائهم بإيجاز في المسائل الاتية :اختلفوا في المكان لله تعالي: فذهب بعضهم – وهم جمهورهم – إلى أن الله تعالى في كل مكان بتدبيره، وهذا قول أبي الهذيل والجعفرين، والاسكافي، ومحمد

بن عبد الوهاب الجبائي. وذهب آخرون إلى أن الله تعالى لا في مكان، بل هو على ما لم يزل عليه، وهذا هشام الفوطي وعباد بن سليمان وأبي زفر ذهبوا إلى أن الاستواء هو بمعنى الاستيلاء في قول الله تعالي: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ طه: ٥)، وأجمعوا على أن الله لا يرى بالابصار. واختلفوا في صفة الكلام لله تعالى: فذهب بعضهم إلى إثبات الكلام لله تعالي. وذهب بعضهم إلى إنكار ذلك.

ولهم اختلافات كثيرة في مسائل دقيقة من مسائل الصفات والعقائد، وأبرز سمات هذه الطائفة في باب الأسماء والصفات تظهر في: إنكارهم الصفات وتعطيلها. وأنهم بنوا آراءهم ومعتقداتهم في أصول خمسة، لا يسمي الشخص معتزلياً إلا إذا حققها واعتقد صحتها، وقد استفاضت كتب الفرق والمقالات وكتب التاريخ والعقائد فيها، **الأصل الأول:** يقصدون به البحث حول صفات الله عز وجل وما يجب لله تعالي وما لا يجب في حقه. وقد حرص المعتزلة على إنكار صفات لله تعالى بحجة أن إثباتها يستلزم تعدد القدماء وهو شرك على حد زعمهم، لأن إثبات الصفات يوحي بجعل كل صفة إلها، والمخرج من ذلك هو نفى الصفات

وإرجاعها إلى ذات الباري تعالي فيقال: عالم بذاته قادر بذاته.. الخ، وبذلك يتحقق التوحيد في نظرهم[١].

يقول القاضي عبد الجبار في بيانه لمعنى العدل ودلالته، وفى سبب تأخيره الكلام عليه بعد إيراد بحث التوحيد – يقول: وأما **الأصل الثاني** من الأصول الخمسة وهو الكلام في العدل. وهو كلام يرجع إلى أفعال القديم جل وعز وما يجوز عليه وما لا يجوز، فذلك أو جبنا تأخير الكلام في العدل عن الكلام في التوحيد. وفى هذا الفهم الخاطئ يقول القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة: "أفعال العباد غير مخلوقة فيهم، وأنهم هم المحدثون لها[٢]." فاتفق المعتزلة على أن الله تعالى غير خالق لأفعال العباد وأن العباد هم الخالقون لأفعالهم، مع أنهم يؤمنون بأن الله تعالى عالم بكل ما يعمله العباد وأن الله تعالي هو الذي أعطاهم القدرة على الفعل أو الترك. ولهم في هذا الباب شبه كثيرة وجدلا عقلي.

الأصل الثالث هو الوعد في مفهوم المعتزلة عرفه القاضي عبد الجبار بقوله: أما الوعد فهو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه

---

١) فتح الباري: ٣٧٣/١٣.

٢) شرح الاصول الخمسة: ص ٣٠١.

في المستقبل، ولا فرق بين أن يكون حسنا مستحقا وبين ألا يكون كذلك، ألا ترى أنه كما يقال: أنه تعالى وعد المطيعين بالثواب، فقد يقال: وعدهم بالتفضل مع أنه غير مستحق، وكذلك يقال: فلان وعد فلانا بضيافة في وقت تضيق عليه الصلاة مع أنه يكون قبيحا و قال: "ولابد من استقبال الحال في الحدين جميعا، لأنه إن نفعه في الحال أو ضره مع القول لم يكن واعدا ولا متوعدا.." إلى أن قال في بيان علوم الوعد والوعيد في مفهومهم: "وأما علوم الوعد والوعيد فهو أنه يعلم أن الله وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة، ولا يجوز عليه الخلف والكذب[١]."

وقد أورد المعتزلة لتأييد مذهبهم هذا بعض النصوص التي فهموا منها وجوب إنفاذ الله وعده، وهى آيات من القرآن الكريم وبعض الشبه العقلية، واستدلوا أيضا على ذلك من العقل بأن الله مادام قد كلف عباده بالأعمال الشاقة فلابد أن يكون لها مقابل من الاجر، وإلا لكان ذلك ظلما، والله منزه عن الظلم، فلا يجوز على الله تعالي – في نظرهم – أن يوجب العمل ولا يوجب له جزاء[٢]. أما أصل مرتكب الكبيرة فيدور حول الحكم على مرتكب الكبيرة، حينما طلب إلى الحسن

---

١) المصدر السابق ص ١٣٤.

٢) الملل والنحل ١/٤٥.

البصري أن يبين الحكم في صاحب الكبيرة، وما تلا ذلك من جواب واصل بن عطاء، ثم اشتداد الخلاف بعد ذلك واعتزال واصل وجماعته حلقة الحسن البصري. وقضية مرتكبي الذنوب كانت هي الحصيلة الحتمية عند المعتزلة لمواقف الفرق الأخرى من خوارج ومرجئة وأهل السنة أيضا، بسبب ما استجد بين المسلمين من أحداث خطيرة سياسية، ابتداء من قتل عثمان رضي الله عنه وانتهاء بأصحاب المعاصي أيا كان عصيانهم. وقد أجمعت المعتزلة على قضية المنزلة بين المنزلتين واعتبروها أصلا من الاصول الثابتة. وتلقب هذه المسألة حسب ما يذكره القاضي عبد الجبار "بمسألة الاسماء والاحكام." وقد بين اصطلاح المتكلمين في معنى المنزلة بين المنزلتين بقوله: والأصل في ذلك أن هذه العبارة إنما تستعمل في شيء بين شيئين ينجذب إلى كل واحد منهما بشبه. هذا في أصل اللغة، وأما في اصطلاح المتكلمين فهو العلم بأن لصاحب الكبيرة اسما بين الاسمين وحكما بين الحكمين على ما يجئ من بعد ." وما أحال إليه هنا في قوله: "على ما يجئ من بعد" قد شرحه تحت عنوان: "**الأصل الرابع:** وهو الكلام في المنزلة بين المنزلتين"، قال فيه: "أعلم أن هذا الفصل كلام في الأسماء والأحكام ويلقب بالنزلة بين المنزلتين، ومعنى قولنا: إنه كلام في أسماء الأحكام، هو أنه

كلام في أن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين وحكم بين الحكمين، لا يكون اسمه اسم الكافر ولا اسمه اسم المؤمن وإنما يسمى فاسقا وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما[1]."

والمقصود أن المعتزلة يريدون بالمنزلة بين المنزلتين المؤمن صاحب المعاصي، فهو عندهم ليس بمؤمن ولا كافر بل يفرد له حكم ثالث وهو تسميته "فاسقا" في الدنيا، والحكم بخلوده في النار في الآخرة، فاختلف اسمه وحكمه في الدنيا فاستحق أن يكون في منزلة بين المنزلتين. والذي حيرهم في أمر الفاسق هو أنه من جهة ليس بمؤمن، لأن حكم المؤمن لا ينطبق عليه في الواقع لمجيئه بأعمال غير المؤمنين في بعض أموره، وهو كذلك ليس بكافر تماما لمجيئه بأعمال المؤمنين في بعض أموره، إذا فهو فاسق، والفسق اسم ذم، وما ثبت له اسم الذم انتفى عنه اسم المدح، وقد توعد الله الفساق بالنار فحكمه في الآخرة الخلود فيها.

---

١) شرح الاصول الخمسة ص١٣٧.

والأصل الأخير من أصول المعتزلة الخمسة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد بين القاضي عبد الجبار حقيقة الأمر، والنهي، والمعروف، والمنكر، فقال: "أما الأمر: فهو قول القائل لمن دونه في الرتبة: أفعل، والنهي هو قول القائل لمن دونه: ولا تفعل. وأما المعروف: فهو كل فعل عرف فاعله حسنه أو دل عليه، ولهذا لا يقال في أفعال القديم تعالى: معروف، لم يعرف حسنها ولا دل عليها. وأما المنكر: فهو كل فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه، ولو وقع من الله تعالي القبيح لا يقال: أنه منكر، لما لم يعرف قبحه ولا دل عليه[1]." ومعنى التعريف أن المعروف والمنكر لابد أن يتضح أمرهما عند الشخص بأن يرى حسن المعروف ويدلل عليه، ويرى قبح المنكر ويستطيع أن يدلل عليه، وهذا بخلاف ما لو وقع من الله – افتراضا – فعل القبيح فإنه لا يستطيع أن يدلل عليه، ولذا فلا يوصف بالمنكر. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبران من فروض الكفايات عند المعتزلة إذا قام بهما من يكفي سقط عن الباقين، وحكمها عموما الوجوب الكفائي. وقد استدل المعتزلة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأدلة كثيرة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية والاجماع.

---

١) المصدر السابق: ص١٤٠.

ومن الجدير بالذكر أنه قد اتفقت مفاهيم المعتزلة مع القدرية في مسألة من أهم مسائل العقيدة، ألا وهى القدر وموقف الإنسان حياله، فذهبت المعتزلة والقدرية إلى القول بأن الله تعالى غير خالق لأفعال الناس، بل الناس هم الذين يخلقون أفعالهم بأنفسهم، وليس لله تعالى أي صنع في ذلك ولا قدرة ولا مشيئة ولا قضاء. وهذا تكذيب لله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام. وقد أورد الأشعري جملة اعتقاد المعتزلة في التوحيد وسرد عنهم عدة جمل يصفون بها الله عز وجل، زعموا أن ذلك هو توحيد الله تعالى وهو في الحقيقة إلحاد يؤدي إلى إنكار وجود الله تعالي، فقد وصفوه بصفات مبنية كلها على النفي المجرد، مملوءة بالتناقض والمستحيلات التي لا يمكن أن يوجد لها محل خارج الذهن لا تمت إلى توحيد الله بأى صلة، بل هي خيالات محضة وكذب على الله بغير دليل ولا أثاره من علم، ويمكن للقارئ أن يقف عليها في كلام الأشعري الاتي: أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وليس بجسم ولا شبح، ولا جثة ولا صورة، ولا لحم ولا دم ولا شخص، ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذي أبعاض

وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال، وإمام وخلف، وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان، ولا يجري عليه زمان، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة، ولا الحلول في الاماكن.

الأشاعرة:

ظهرت الأشعرية لتحد من سيطرة المعتزلة في القرن الثالث الهجري. وهى في الاصل نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، ظهر بالبصرة وكان أول أمره على مذهب المعتزلة ثم تركه واستقل عنهم، ولقد أصبح الانتساب إلى الأشعري هو ما عليه أكثر الناس في البلدان الإسلامية. بعضهم على معرفة بمذهبه الصحيح وآرائه التي استقر عليها أخيرا، وبعضهم على جهل تام بذلك وبعضهم يتجاهل ويصر على مخالفته مع انتسابه إليه. وانتساب الأشاعرة إلى الأشعري إنما هو بعد تركه للاعتزال وانتسابه إلى ابن كلاب، وهى المرحلة الثانية من المراحل التي مر بها الأشعرية، ولم يدم فيها إذ رجع إلى مذهب السلف، ولكن بعض الأشاعرة ينتسبون إليه ولكن في مرحلته الثانية، ومن انتسب إليه في مرحلته الثالثة فقد وافق السلف، ونذكر فيما يلي نبذة موجزة عنه.

أبو الحسن الأشعري هو علي بن إسماعيل الأشعري ينتسب إلى أبي موسى الأشعرية، وهو أحد علماء القرن الثالث، تنتسب إليه الأشعري، ولد في البصرة سنة ٢٥٠ هـ وقيل: سنة ٢٧٠ هـ وتوفى سنة ٣٣٠ هـ على أحد الاقوال. تعمق أولا في مذهب المعتزلة وتتلمذ على يد أبي علي الجبائي محمد بن عبد الوهاب أحد مشاهير المعتزلة، إلا أن الله أراد له الخروج عن مذهبهم والدخول في مذهب أهل السنة والجماعة، وتوج ذلك بما سجله في كتاب "الإبانة عن أصول الديانة." ومما يذكر عن سيرته أنه كان دائما يتململ من اختلاف الفرق في وقته وينظر فيها بعقل ثاقب، فهداه الله إلى الحق واقتنع بما عليه السلف من اعتقاد مطابق لما جاء في القرآن والسنة النبوية فكان له موقف حاسم في ذلك. ومما يدل على ذكائه وطلبه للحق وإفحامه لخصمه في المحاجة أنه سأل أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة أخوة كان أحدهم مؤمنا برا تقيا.والثاني كان كافراً فاسقاً شقياً، والثالث كان صغيرا، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات وأما الصغير فمن أهل السلامة. فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائي: لا لأنه يقال له: أخوك إنما وصل إلى هذه الدرجات بطاعاته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات، فقال

الأشعري: فإن قال: ذلك التقصير ليس مني فإنك ما أبقيتني على الطاعة، فقال الجبائي: يقول البارئ جل وعلا: كنت أعلم لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، فقال الأشعري: فلو قال الاخ الأكبر يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي فلم راعيت مصلحته دوني؟ فانقطع الجبائي. لقد كان الأشعري إماما فذا كثير التأليف واسع الاطلاع محببا إلى الناس، ولهذا تجد أن كل طائفة تدعي نسبته إليها "فالمالكي يدعي أنه مالكي، والشافعي يزعم أنه شافعي، والحنفي كذلك[1]".

كان الأشعري على مذهب المعتزلة ومن العارفين به، وأنه أقام عليه مدة أربعين سنة ومما يذكره العلماء عن سيرته ورجوعه عن الاعتزال ومذهب ابن كلاب إلى المذهب الحق، أنه مكث في بيته خمسة عشر يوما لا يخرج إلى الناس وفى نهايتها خرج في يوم جمعة، وبعد أن انتهى من الصلاة صعد المنبر وقال مخاطبا من إمامه من جموع الناس: أيها الناس، من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله تعالى لا يرى بالابصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع متصد للرد على

---

١) أبو الحسن الاشعري ص٨.

المعتزلة مخرج لفضائحهم. معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة، لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي شيء على شيء فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا"، وانخلع من ثوب كان عليه. ودفع الناس ما كتبه على طريقة الجماعة من الفقهاء والمحدثين. وحينما انضم إلى أهل السنة والجماعة، فرحوا به فرحا شديدا، واحترموه وعرفوا قدرة وإخلاصه وتوجهه إلى الحق بيقين ثابت، وصارت أقواله حجة وآراؤه متبعة، بينما ثار عليه أهل الاعتزال وذموه بأنواع الذم غيظا عليه، لوقوفه في وجوههم وإبطال آرائهم المخالفة للحق وتركه لمذهبهم، خصوصا وأنه كان من المتعمقين في مذهبهم والعارفين بعواره. ومما ينبغي ملاحظته أن ينتبه طالب العلم إلى تمويه المغرضين ممن يزعم أن الأشعري لم يتب عن الاعتزال، وأن الإبانة مدسوسة عليه، وهو كذب ليس له ما يسنده، بل الصحيح الذي عليه عامة علماء السلف أن الأشعري رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة وتاب من كل ما يخالفه، كما صرح بذلك في كتبه كالإبانة وغيرها من مؤلفاته النافعة. وعلى هذا فإن الأشعري مر بثلاثة أحوال في عقيدته: الحال الأول: حال الاعتزال. الحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبع: وهى

الحياة – والعلم – والقدرة – والإرادة – والسمع – والبصر – والكلام. وتأويل الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك. الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جريا على منوال السلف كما في الإبانة. وفى كتابه الإبانة توضيح تام لعقيدته السلفية ومتابعته لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل، وخصوصا الباب الذي عنوانه "باب في إبانة قول أهل الحق والسنة" تجد فيه العقيدة السلفية واضحة[١].

عقيدته كما بينها في كتابه "الإبانة: قال رحمه الله تعالى: باب في إبانة قول أهل الحق والسنة: فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون. قبل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا صلى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون. وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل – نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته – قائلون ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق ورفع

---

١) المصدر السابق ١٧.

به الضلال وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم وخليل معظم مفخم وعلى جميع أئمة المسلمين. وجملة قولنا :أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرد من ذلك شيئا، وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد لم يتخذ صاحبه ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور وأن الله استوى على عرشه كما قال: (الرحمن على العرش استوى)، وأن له وجها كما قال: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وأن له يدين بلا كيف كما قال: (خلقت بيدي)، وكما قال: (بل يداه مبسوطتان)، وأن له عينا بلا كيف كما قال: (تجري بأعيننا)، وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالا، وأن لله علما كما قال: (أنزله بعلمه)، وكما قال: (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) ونثبت له السمع والبصر ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج، ونثبت أن لله قوة كما قال: (أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة)، ونقول: إن كلام الله غير مخلوق وإنه لم يخلق شيئا إلا وقد قال له: كن فيكون كما قال: (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن

فيكون) وإنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله، وإن الاشياء تكون بمشيئة الله عز وجل وإن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله الله ولا نستغني عن الله ولا نقدر على الخروج من علم الله عز وجل، وإنه لا خالق إلا الله، وإن أعمال العبد مخلوقة لله مقدورة كما قال: (خلقكم وما تعملون) وإن العباد ولا يقدرون أن يخلقوا شيئا وهم يخلقون كما قال: (هل من خالق غير الله)، وكما قال: (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون)، وكما قال: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)، وكما قال: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)، وهذا في كتاب الله كثير. وإن الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر إليهم وأصلحهم وهداهم، وأضل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالإيمان كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين، ولو هداهم لكانوا مهتدين كما قال تبارك وتعالى: (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون)، وإن الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وإنه خذلهم وطبع على قلوبهم، وإن الخير والشر بقضاء الله وقدره وإنا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا

نفعا إلا ما شاء الله، وأنا نلجئ أمورنا إلى الله ونبث الحاجة والفقر في كل وقت إليه، ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر. وندين بأن الله تعالى يرى في الآخرة بالابصار كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقول: إن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة، كما قال الله عز وجل: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)، وإن موسى عليه السلام سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا، وإن الله سبحانه وتعالي تجلى للجبل فجعله دكا فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا، ونرى بألا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور، كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون. ونقول: إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبههما مستحلا لها غير معتقد لتحريمها كان كافرا. ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان وليس كل إسلام إيمان، وندين بأنه يقلب القلوب وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، وأنه عز وجل يضع السموات على أصبع والأرضين على أصبع كما جاءت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وندين بألا ننزل أحدا من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة ولا نارا إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه

وسلم بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين. ونقول: عن الله عز وجل يخرج قوما من النار بعد أن امتحنوا بشفاعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقا لما جاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض، وأن الميزان حق والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف ويحاسب المؤمنين. وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ونسلم بالروايات الصحيحة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى تنتهي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وندين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ونثني عليهم بما أثني الله به عليهم ونتوالهم أجمعين. ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، وأن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين وقدمه المسلمون لإلمامة كما قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة، وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه وأن الذين قاتلوه قاتلوه ظلما وعدوانا، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله

صلى الله عليه وسلم وخلافتهم خلافة النبوة، ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، ونتولى سائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ونكف عما شجر بينهم. وندين لله بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون فضلاء لا يوازيهم في الفضل غيرهم. ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا وأن الرب عز وجل يقول: هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافا لما قاله أهل الزيغ والتضليل، ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وإجماع المسلمين وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله بدعة لم يأذن الله بها، ولا نقول على الله ما لا نعلم ونقول: إن الله عز وجل يجئ يوم القيامة كما قال: (وجاء ربك والملك صفا صفا)، وإن الله عز وجل يقرب من عباده كيف شاء كما قال: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)، وكما قال: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى)، ومن ديننا أن نصلي الجمعة والاعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل بر وغيره، كما روى عن عبد الله بن عمر أنه كان يصلي خلف الحجاج.

وإن المسح على الخفين سنة في الحضر والسفر خلافا لقول من أنكر ذلك، ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ولإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة. وندين بترك الخروج عليهم بالسيف وترك القتال في الفتنة، ونقر بخروج الدجال كما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير ومسائلتهما المدفونين في قبورهم، ونصدق بحديث المعراج ونصحح كثيرا من الرؤيا في المنام ونقر أن لذلك تفسيرا، ونرى الصدقة عن موتي المسلمين والدعاء لهم ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك، ونصدق بأن في الدنيا سحره وسحرا وأن السحر كائن موجود في الدنيا، وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم وتوارثهم. ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان، وأن من مات أو قتل فبأجله مات أو قتل وأن الارزاق من قبل الله عز وجل يرزقها عبادة حلالا وحراما، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويتخبطه خلافا لقول المعتزلة والجهمية، كما قال الله عز وجل: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس)، وكما قال: (من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس)، ونقول: إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله عز وجل بآيات يظهرها عليهم. وقولنا

في أطفال المشركين: إن الله يؤجج لهم في الآخرة نارا ثم يقول لهم: اقتحموها كما جاءت بذلك الرواية، وندين لله عز وجل بأنه يعلم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون، وما كان يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين، ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الاهواء، وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقى منه مما لم نذكره بابا بابا وشيئاً شيئاً إن شاء الله تعالى.

لقد انتسب إلى الأشعري جماعة من المشاهير كان لهم الباع الطويل في تحرر المذهب الذي ينتسبون إليه. إلا إنهم لم يكونوا على طريقة أبي الحسن الأشعري والمتقدمين من أصحابه في إثبات الصفات. ومن كبار أولئك الرجال: أبو بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ. البيضاوي المتوفي سنة ٧٠١ هـ. الشريف الجرجاني المتوفي سنة ٨١٦ هـ. وكذا الإمام الجويني (الأب)، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٣٨ هـ. وكذا ابنه إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٤٧٨ هـ. والجويني نسبة إلى بلدة في فارس تسمى "جوين" وقد سمى إمام الحرمين، لأنه مكث أربع سنوات ثم عرج على المدينة المنورة وكان يدرس فيهما

ويناظر. ومن أولئك أيضا: الغزالي – أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي الملقب حجة الإسلام، توفى سنة ٥٠٥ هـ وهو ينسب إلى طوس. ومنهم: أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم الشهرستاني ولد سنة ٤٦٧ هـ وتوفى سنة ٥٤٨ هـ. ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الطبرستاني، الرازي المولد، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي.

وأما قدماء الأشاعرة الذين كانوا على مذهب أبي الحسن الأشعري في إثبات صفات الله تعالي فمنهم: الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب، والطبري: أبو الحسن الطبري، والباهلي :أبو عبد الله بن مجاهد، وهؤلاء مشوا على الطريقة السلفية في باب الصفات، ولكن من جاء بعدهم ممن ينتسب إلى الأشعري تركوا طريقتهم وأولوا الصفات تأويلات باطلة، ومنهم من رجع أخيرا إلى مذهب السلف وذموا ما كانوا عليه من الانحراف وهم بعض من قدمنا أسماءهم فيما يذكر عنهم عند وفاتهم[١].

١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١/١٨١.

الفكر الصوفي:

يجب إدراك أن التصوف مر بمراحل وتطورات ومفاهيم مختلفة، ومن هنا وقع كثير من الجدل بين العلماء في التعريف بالصوفية، ومهما قيل عن كثرة التعريفات للتصوف، فإنه يصدق عليه عموماً أنه نوع من فلسفة الحياة استخرج له أصحابه مبررات من الدين وأساليب من العبادة.

ومن التعريفات التي أطلقت على مفهوم التصوف سواء كانت من الصوفية أو من مخالفيهم، أن التصوف هو تجريد العمل لله تعالى، والزهد في الدنيا وترك دواعي الشهرة، والميل إلى التواضع، وإماتة الشهوات في النفس، وهذا التعريف قد لا يصدق في الواقع إلا على التصوف في عهده الأول، الذي كان التصوف فيه عبارة عن الانقطاع لعبادة الله وحده، والزهد في الدنيا والتخفف من متاعها والاقبال على الآخرة، دون أن يلبسوا ذلك بشيء من الأفكار والسلوك الخارج عن الشريعة والعبادات. وذهب قسم كثير من العلماء إلى أن سبب التسمية للمتصوفة بهذا الاسم – أي "الصوفية" – إنما كان نسبة إلى لبسهم الصوف الذي عبر عن الزهد والتقشف وترك التنعم والملذات المباحة، وقد علق القشيري على هذا بقوله: "فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف." وبعض العلماء يرى أن التصوف

مأخوذ عن الصفاء؛ أي صفاء أسرارهم أو صفاء قلوبهم أو صفاء معاملتهم لله تعالى، وهو ما يحب الصوفيون التسمي به، بل إن كل انتساب فيما لاحظ (نيكلسون) إلى الصوف يقابله اثنا عشر تعريفاً تعتمد على الصفاء، الذي حاول الصوفية أن ينتسبوا إليه[١]. إلا أن القشيري قد استبعد هذا المفهوم في اللغة بقوله: "ومن قال أنه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة[٢]. وبعضهم يرى أنه نسبة إلى الصفة التي كان يجلس فيها فقراء الصحابة رضوان الله عليهم في المسجد، ويرى القشيري أن النسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي. وبعضهم يرى أنه نسبة إلى الصف الأول، قال القشيري: فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف[٣]" وبعضهم يرى أنه نسبة إلى قبيلة بني صوفة وهى قبيلة بدوية كانت حول البيت في الجاهلية، وهى تنتسب إلى رجل يقال له صوفة كان قد انقطع للعبادة في المسجد الحرام. وبعضهم يرى أنها نسبة إلى الصفوة من خلق الله تعالى. وهناك تعريفات كثيرة خاض فيها العلماء باجتهاداتهم بعضها من وضع

---

١) علوي السقاف: التصوف ص٣٧.

٢) الرسالة القشيرية ص٥٥٠.

٣) المصدر السابق. ٤٠.

أقطاب التصوف وبعضها من غيرهم، ولما كانت تلك التعريفات أموراً اجتهادية وتقريباً لهذا المذهب، فقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ردود على بعض تلك التعريفات، وذكر أنه إذا كانت النسبة إلى أهل الصفة، فإنه يقال صُفِي، وأما إذا كانت إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى فإنه يقال صَفِي، وأما إذا كانت نسبة إلى الصفوة من خلق الله فإنه يقال صَفوِيٍ، وأما إذا كانت النسبة إلى ذلك الرجل الجاهلي فإنه لا أحد من المتصوفة يرضى أن ينسب إلى قبيلة جاهلية قبل الإسلام، إضافة إلى أنه لم تعرف هذه التسمية بين الصحابة ولا كانت هذه القبيلة مشهورة أيضاً. وقد رجح شيخ الإسلام فيما يظهر من كلامه أن التصوف نسبة إلى الصوف حيث قال: "وقيل – وهو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف." ثم علل ذلك بقوله: "فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الامصار؛ ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية." وأيد السهروردي صحة القول بنسبة الصوفية إلى الصوف، وذكر أدلة كثيرة على فضائل لبس الصوف، وبالغ في مدح الصوفية حين اختاروا هذا

الاسم، ثم ذكر الأسماء الأخرى والتي منها نسبتهم إلى أهل الصفة من فقراء الصحابة المهاجرين، ثم قال: وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكن صحيح من حيث المعنى؛ لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك[1]"

أما الملامية أو الملامتية فقد عنون المنوفي لها بقوله: "أهل الملامة والملامتية، والملامتية هي تطور للمذهب الصوفي وطرقه المتشعبة، والملامتي حسب المفهوم الصوفي عرفه السهروردي بقوله عن بعضهم: "االملامتي هو الذي لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً"، ثم قال: "وشرح هذا هو: أن االملامتي تشربت عروقه طعم الإخلاص وحقق بالصدق، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله ولا يتم هذا الإخلاص إلا إذا أصبح يستوي عنده المدح والذم له من الناس، وألا يفكر في اقتضاء ثواب العمل في الآخرة." ويعللون لهذا بأنه مع الناس في الظاهر، وهو مع الله في الباطن مهما كانت أفعاله في الظاهر. ومن هنا قال أبو سعيد الخراز: "رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين" وشرح السهروردي هذا الكلام بقوله: "ومعني قوله: إن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص والعارف منزه عن الرياء الذي يبطل العمل، ولكن لعله يظهر شيئاً من حاله وعمله

---

١) المنوفي: جمهرة الأولياء ١/١٥٤.

بعلم كامل عنده فيه؛ لجذب مريد أو معاناة خلق من أخلاق النفس في إظهاره الحال والعمل، وللعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء، وليس برياء إنما هو صريح العلم لله وبالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه، ولهذا فإن من الثابت عندهم أن كل ما يصدر عن الصوفي ينبغي أن يفسر بخير، كما بين ذلك الشعراني في طبقاته وغيره من كبار الصوفية، في تراجمهم للصوفية. وقد شبههم المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء بأهل الكهف في فتوتهم وحالهم، حين قال في التعريف بهم: "الملامة نعت لإبدال أهل الفتوة، واسم الملامية أو االملامتية أطلق على قوم يلومون أنفسهم مع حسن أحوالهم ونموها"، وقد قسم شيخ الإسلام ابن تيمية الملامية إلي قسمين: ملامية يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود، وملامية يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصرون على الملام في ذلك والصبر عليه، وهؤلاء هم أهل الملام المذموم. قال: "وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك[1]." لقد تضاربت أقوال العلماء

---

١) أبو العلا عفيفي: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، ص٢٧ وما بعدها.

وتعددت مفاهيمهم حول الوقت الذي ظهرت فيه الصوفية، وكل أدلي بدلوه حسبما ترجح لديه، والواقع أنه لا يعرف بالتحديد الدقيق متى بدأ التصوف في المسلمين ولا من هو أول متصوف، ومن تلك التحديدات من أقوال العلماء: أن هذه التسمية عرفت قبل الإسلام مراداً بها أصحاب الفضل والشرف. وأن المذهب الصوفي ظهر ١٥٠ هـ. وأن المذهب الصوفي ظهر ١٨٩هـ. و أن المذهب الصوفي ظهر بعد المائتين من الهجرة. وأن المذهب الصوفي ظهر قبل المائتين من الهجرة. وأن المذهب الصوفي ظهر بعد القرون الثلاثة الأولي أي في القرن الرابع الهجري. وأنه اشتد بعد النصف الثاني من القرن الثامن والتاسع والعاشر حين ظهرت آلاف الطرق الصوفية، وأن التصوف كان معروفاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كما قال الهجويري وهو من علماء الصوفية، ويقول المنوفي: "ولم تطلق كلمة صوفية علي جماعة بعينها إلا في القرن الثاني للهجرة[١]." ولكن يذكر شيخ الإسلام تحديد بدء التكلم به بقوله: "أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك." وكذلك يذكر أيضاً أن التصوف أول ما أشتهر كان في البصرة، حتى قيل: فقه كوفي وعبادة بصرية، وأن الصوفية

---

١) أبو الفضل المنوفي: مجهرة الأولياء ١/١٥٤.

أول ما ظهرت من البصرة؛ ولهذا فإن العلماء لم يتفقوا علي بيان محدد لمفهوم التصوف عند الصوفيين؛ ذلك لإطلاق هؤلاء الصوفية عبارات شتى حسب ذوق كل فريق، وتخيلاته لمفهوم التصوف، إلا أن الحصيلة العامة لأقوالهم تلتقي حول أن التصوف هو: القرب من الله، وترك الاكتساب، والتمسك بالخلق الرفيع، والجود، ورفع التكاليف عن بعض فضلائهم حين يتصلون بالله عز وجل على حد زعمهم، ويصلون إلي درجة اليقين وظهور المكاشفات، ثم هم بعد ذلك درجات في تطبيق هذا المفهوم. ولقد ذكر القشيري في "رسالته" عدداً من الآراء الصوفية في مفهوم التصوف والصوفي، حيث قال: وتكلم الناس في التصوف ما معناه، وفي الصوفي من هو؟ فكل عبر بما وقع له، واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الايجاز، وسنذكر هنا بعض مقالاتهم فيه علي حد التلويح." ومما نقله عن الجنيد أنه قال :إذا رأيت الصوفي يعني لظاهره فاعلم أن باطنه خراب." وقال القشيري: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سمعت أبا نصر السراج يقول: سئل ابن الجلاء: ما معني قولهم صوفي؟ فقال: ليس نعرفه في شرط العلم، ولكن نعرف أن من كان فقيراً مجرداً من الاسباب وكان مع الله تعالي بلا مكان، ولا يمنعه الحق سبحانه عن علم كل مكان، يسمى صوفياً، وهناك أقوال أخرى ذكرها

القشيري كلها تدور حول مدح التصوف وبيان تعلقات الصوفية ومفاهيمهم حول المولى جل وعال، وحول هذا الكون وواجبات الصوفي واهتماماته الدنيوية والآخروية، صيغت بزخرف من القول وإيغال في الخيال في بعضها، وحكم جيدة في البعض الآخر، وأما السهروردي فقد أورد باباً خاصاً في كتابه عوارف المعارف قال فيه: الباب الخامس في ماهية التصوف"، وقد أكد في هذا الباب على أن أساس التصوف هو الفقر، حيث قال: "فالفقر كائن في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه"، ونقل أقوالا كثيرة عن صفة هذا الفقر الصوفي، منها: ما قاله الشبلي حين سئل عن حقيقة الفقر فقال: "ألا يستغني بشيء دون الحق." وقال السهروردي: وقيل: التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع" وأما حقيقة التصوف وأصله عند غير الصوفية فقد اختلفت وجهة نظر العلماء في الحكم عليه. وأهم ما قيل في ذلك: أن التصوف علي الاطلاق أساسه الإسلام وأن أصوله العقدية وسلوكهم فيه مستمدة من نصوص الكتاب والسنة، وما أدى إليه الاجتهاد في فهمها. وهذا القول قريب من وجهة نظر الصوفية ومفهومهم فيه رغم اعتراف بعضهم بتأثر التصوف ببعض التيارات الفكرية الخارجة عن الإسلام.

المتصوفة طوائف عديدة وأهواء متباينة، ولقد اختلف العلماء في عدهم لأقسام وطرق التصوف اختلافاً واسعاً؛ إذ تجد بعضهم يعدهم قسمين، وبعضهم يعدهم ثلاثة أقسام، وبعضهم يوصلهم إلى ستة أقسام، وهذا الاختلاف سببه تنوع مصادر الصوفية وتنوع أفكارهم، فبعض الصوفية تابعون للمذهب الاشراقى، الذي يدعي أن المعرفة والعلم تقذف في النفس بسبب طول المجاهدة الروحية، إذ يحصل لها بذلك فيض وإشراق إلهي، ومذهبهم أشبه ما يكون بالمذهب البوذي في رياضة النفس وحملها على المكاره. هذا قسم من الصوفية. وقسم آخر بعض العلماء يعبر عنهم بصوفية الحقائق، وهم من صفوا من الكدر وامتلئوا من الفكر كما يدعون، على طريقة الفلسفة الهندية، وقسم آخر من الصوفية قائلون بالحلول؛ أي دعوى أن الله – تعالى عن قولهم – حل في مخلوقاته وأن أرواحهم لاهوتية وأجسامهم ناسوتية. ومن أكابر أهل هذا المذهب الحلاج، حين قال في تفسير هذا الحلول: سبحان من أظهر ناسوته ثم بدأ في خلقه ظاهراً حتى لقد عاينه خلقه سر سنا لاهوته الثاقب في صورة الآكل والشارب كلحظة الحاجب بالحاجب. وصوفية وحدة الوجود هم القائلون بأن الموجودات كلها تمثل الباري عز وجل،

وفى أولهم ابن عربي وهو من المؤسسين لمذهب وحدة الوجود، يقول في تقرير ذلك في كتابه الفتوحات المكية:

العبد رب والرب عبد إن قلت عبد فذاك رب

يا ليت شعري من المكلف أو قلت رب فأنى يكلف

لقد أصبح من الصعب جداً تمييز طوائف التصوف أو الحكم عليهم بحكم واحد شامل لجميع فرقهم وعقائدهم المتشعبة؛ إذ لا يمكن معرفة كل قسم من أقسام التصوف قائما بنفسه متميزاً عن غيره إلا من خلال "الطرق" الكثيرة، والتي هي تعبير عن التزام مجموعة من الاتباع أو المريدين بشيخ يجعلونه قدوتهم، وينفذون ما يوجبه عليهم من أذكار وسلوك، وقد تتفق طريقته مع بعض الطرق وقد تختلف عنها، والطرق الصوفية لم تقف عند حد أو مفهوم، فهي دائماً في ازدياد وتجدد؛ إذ كل من ابتدع طريقاً، وجد له أتباعاً يتسمون باسمه أو باسم طريقته. يزعم المتصوفة أنهم على حق وأن ما يدينون به من أفكار إنما هي نابعة من تمسكهم بالكتاب والسنة وفهم حقائق الإسلام. قال السيد محمود أبو الفيض المنوفي: "والتصوف الإسلامي نبعه القرآن أولا وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ثانياً والفقه في الدين فروعاً وأصولا ثالثاً ولهم – أي المتصوفة – فوق ذلك قواعد

وقوانين صوفية استمدوها من حقائق اليقين وخفي معاني القرآن، ومن دقائق السنة عملية معملية، ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله، وهذا في الواقع مستمد علم التصوف الإسلامي. أي أنهم يرجعون في جملة مستنداتهم إلى تلك الدعوى العريضة وهي أخذهم الأحكام من حقائق اليقين وخفي معاني القرآن، ثم يذكر المنوفي مستنداً آخر لهم بقوله: ومستمد الصوفية هم أهل الصفة، وإن كان تعريف الاسم يناسب لبس الصوف من حيث الاشتقاق. وهذا صحيح؛ لأن أهل الصفة وغيرهم من الروحيين في الإسلام وقبل الإسلام، ومن قديم الزمان كانوا يلبسون الصوف لخشونة فيه وهم متخوشنون، أو قل لسبب لونه الأبيض الذي يرمز إلى الطهارة والصفاء، وكان أيضاً لباس الحواريين[1]."

للصوفية طرق عديدة ومسالك وقواعد خاصة للتربية حسب منهجهم، فأول ما يجب هو أن يختار الفرد أو الجماعة من المريدين شيخاً لهم يسلك بهم رياضة خاصة بهم على دعوى وزعم تصفية القلب للوصول بالمريد إلى معرفة الله، ولا يتم السير في الطريق الصوفي إلا إذا عطل المريد عقله وفكره. وأن يتبع المريد شيخه أتباعاً مطلقاً حتى وإن كان في تحريم الحلال وإحلال الحرام، وعليه أن يردد ما

---

١) أبو الفضل المنوفي: مجهرة الأولياء ٦٨/١.

يردده الشيخ من أذكار. ثم يكون وجوباً عليه أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، فإن الاعتراض وإبداء الرأي من أكبر الأخطار على المريد وطرده عن رحمة الله. وعليه كذلك أن يعتقد أن جميع ما يفعله الشيخ هو الحق والصواب، وعلى المريد وجوب التسليم للشيخ في كل ما يأتي ويذر. كما أنه يحب عليه أن يجتاز تلك الخلوة المفروضة. وأن يتصور صورة الشيخ ماثلة إمامه في كل حال، وأن يعتقد أن الشيخ يعلم بكل شيء عنه وهو في داخل خلوته، ويعرف كل شئونه ما دق منها وما جل. وأن لا يغير شيخه بآخر. ولا يزور أحد المشايخ والأولياء ما دام في أول أمره. وأن يمشي في الطريقة منزلة منزلة حتى يصل إلى القطبية. وألا يخالط المقصرين والبطالين من أهل قيل وقال. وألا يضن بماله ولو طلبه الشيخ كله. وأن يرضى بالذل الدائم وحرمان النصيب، والجوع الدائم وذم الناس له، وتقديم أضرابه وأشكاله وأقرانه عليه في الإكرام والعطاء والتقريب عند الشيوخ ومجالس العلماء، فيجوع هو والجماعة يشبعون والكل أعزاء ونصيبه الذل، ويعز الجماعة ويستجيز الذل ويجعله نصيبه. فمن لم يرض بهذا ويوطن نفسه عليه فلا يكاد أن يفتح عليه ويجيء منه شيء. وأول المنازل في الطرق الصوفية يسمى فيها الداخل مريداً، أي يريد السير في الطريقة، وتسمى

منزلة الارادة يقبله الشيخ ويأخذ عليه العهود بالتوبة من الذنوب وصدق النية وترداد الاوراد المقررة عليه من الشيخ، وألا يعتقد أي معتقد لم يقره الشيخ، ولا يحق له الاعتراض على الشيخ حتى إن رآه مخطئاً . ويسمى بعد توجهه وإرادته المذهب الصوفي سالكاً، وبعد استمراره وسلوكه ومواظبته على الاوراد التي يلقنه الشيخ، فإذا أتقنها انتقل إلى مرتبة أخرى تسمى مرتبة العبودية، وعليه أن يكثر من الضراعة والإلحاح إلى الله بترداد ما يمليه عليه المشايخ من أذكار وأوراد. ثم ينتقل المريد إلى مقام آخر حيث تقبل عليه العناية الإلهية وينتقل قلبه إلى مقام العشق لله، وعلى المريد هنا أن يكثر من الرياضة التي توصله إلى ربه فيما يزعمون، فيكثر من الأوراد والعزلة بنفسه والندم الشديد حتى تتملكه – بزعمهم – حال علوية شريفة ينتقل بها إلى مقام يسمى (الوجد والهيام) وهو أسمى من مقام العشق، وعند هذا المقام المزعوم تتوارد على قلب السالك النفحات الربانية، ويعتقدون أنه في هذه الحال تزداد معرفة السالك الباطنة الصفات الذات العلية. وهنا يصل السالك فيما يزعمون إلى الحقيقة وتسمى هذه المرحلة – مقام الحقيقة – التي يعرفها المنوفي بأنها "مشاهدة الربوبية، وهي في الحقيقة الوصول إلى أعماق الوثنية والحلول، فإذا وصل بزعمهم إلى مقام الحقيقة يمكنه أن يظل يرتقي

إلى أن يحقق منازل ثلاثاً هي: "الفناء"، و "اللقاء"، و "البقاء"، والفناء يقصدون به أن يفنى العبد عن كل شيء في الله تعالى، ويصير كما قال الحلاج: ما في الجبة إلا الله. فالوجود عنده كله يمثل الله، ومن هنا ظهر لديهم الغزل الصوفي، وهو في الله، وسموه الحب الإلهي، وأما اللقاء والبقاء فإن الصوفية يقصدون بذلك أن العبد من خلال تلك المنازل تتجلى عظمة الخالق سبحانه على قلب السالك فلا يرى إمامه إلا الله، ولا يجد في الوجود جميعاً إلا واجب الوجود سبحانه، وتمحى أثار الموجودات من إمام عينيه إلا وجود الله سبحانه وتعالى، وللسهرودي والمنوفي تفاصيل كثيرة حول المقامات ومراتبها العديدة في كتاب السهرودي "عوارف المعارف" وكتاب المنوفي "جمهرة الأولياء".

ومن أنواع الكرامات التي نسبها الصوفية لأنفسهم كما ذكرها المناوي، وهي: إحياء الموتى. وقد مثل بأبي عبيد اليسري الذي أحيا دابته بعد ما ماتت، ومفرج الدماميني الذي أحيا الفراخ المشوية، والكيلانى وأبو يوسف الدهمانى الذي أحيا لتلميذه ولده بعد ما مات. ومن الكرامات التي يزعمونها أن الأولياء من الصوفية لهم القدرة على المشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض وظهور

الشيء في غير موضعه والمشي على السحاب وتحويل التراب إلى خبز وإبراء الأكمه والأبرص[1].

يبدو أن للكشف الصوفي علاقة قوية بترك التكاليف على حد ما أورده عنهم الشيخ سعيد حوى في قوله: يربط بعض الصوفية بين الكشف وترك التكاليف، فيرون أن الإنسان متى كشف له شيء من أمر الغيب – وما أكثر ما يتوهون في هذا الشأن – سقط عنه التكليف، فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ الحجر: ٩٩) ولقد تعدى المتصوفة على هذه الصفة لله عز وجل فأقاموا أمراً سموه "الكشف الصوفى"، ويعنى عندهم رفع الحجب من إمام قلب الصوفي وبصره ليعلم بعد ذلك كل ما يجرى في هذا الكون. كما تبين ذلك من الاشارات الكثيرة إلى حقيقة الكشف من خلال نظرتهم إلى أقطابهم في حالة رفع الحجب عنهم واتحادهم بالله ورفع الآنية بينهم وبين الله، وادعوا أن الصوفي يكشف له عن معان جديدة في القرآن والسنة والآثار والرسوم لا يعلمها علماء الشريعة، الذين سموهم علماء الظاهر والقراطيس؛ لأنهم أي علماء الشريعة إنما يعتمدون في نقل تلك المعاني من القرآن

---

١) الرسالة القشيرية: ٦٧٦/٢.

والسنة على موتى، وأما هم فإنهم يأخذونها عن الله تعالى مباشرة. وقالوا: إن لهم علوماً لا توجد في الكتاب ولا في السنة يأخذونها جديدة عن الخضر الذي هو على شريعة الباطن حسب زعمهم[١].

لقد كان للعشق والرقص والغناء عند الصوفية مكانه ثابتة. وعند الصوفية في أوقاتهم الخاصة مجالس يجتمعون فيها على الرقص والغناء والتصفيق والصياح، ويزيد بهم الوجد فيمزقون فيها ثيابهم ويتمايلون حين يأخذ منهم الطرب مأخذه في حركات. وقد أصبح الرقص الصوفي يمارس عند معظم الطرق الصوفية في مناسبات الاحتفال بمولد بعض كبارهم أو في أية مناسبة من مناسباتهم الكثيرة، فإذا سئلوا عن ذلك زعموا أنها من الطرق التي توصلهم إلى ربهم، أو هو الحب الإلهي كما يسمونه لترغيب الناس فيه. وهذه الصور هي صورة الذكر[٢].

لقد أصبح الحلول من لوازم الصوفية الغلاة ومن المبادئ الأساسية عندهم، وكتبهم مملوءة بذلكنثراً ونظماً، وقد اختلف العلماء في تعريف الحلول: فمنهم من قال: هو اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول

---

١) المصدر السابق ٤٦.

٢) علوي السقاف: الصوفية ص٢٣٠.

ماء الورد في الورد. ومنهم من قال: هو اختصاص شيء بشيء، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما عين الإشارة إلى الآخر. واستعمل بعض المتصوفة لفظ الحلول ليشيروا به إلى صلة الرب والعبد واللاهوت والناسوت، بمعنى أن الله تعالى يحل في بعض الاجساد الخاصة، وأول من أعلنه من الصوفية الحسين بن منصور الحلاج، حين عبر عن ذلك في أبياته الشعرية التي يقرر فيها أن الله تعالى حل في كل شيء، وأنه لا فارق بين الخالق والمخلوق.

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتني.

وقد ملأ ابن عربي كتابه الذي سماه بالفتوحات المكية أشعاراً وشروحاً لها حول هذا الاتحاد والحلول. ويقول ابن الفارض عن الذات الإلهية كما يتصور: ففي النشأة الأولي تراءت لآدم بمظهر حوا قبل حكم النبوة وتظهر للعشاق في كل مظهر من اللبس في أشكال حسن بديعة ففي مرة لبنى وأخرى بثينة ومن هنا نشأ عند ابن الفارض الفوضى الفكرية في تداخل جميع الأديان الحق منها والباطل، حتى صارت بجميع أشكالها شكلا واحداً، فكأنه أراد أن يجمع بين الليل والنهار، والحار والبارد، والحق والباطل، فتصور أن الملل كلها سواء كانت شركية وثنية أو

مجوسية أو نصرانية أو يهودية، الكل عنده يرجع إلى مصدر واحد وحقيقة واحدة هي الله[١].

وحدة الوجود تأتي بعد التشبع بفكرة الحلول في بعض الموجودات، ومفادها لا شيء إلا الله وكل ما في الوجود يمثل الله عز وجل لا انفصال بين الخالق والمخلوق، وأن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة، وهذا هو المبدأ الذي قام عليه مذهب ابن عربي.

وقد انقسم أصحاب هذه المبادئ إلى فريقين: الفريق الأول: يرى الله سبحانه وتعالى روحاً وأن العالم جسماً لذلك الروح، فإذا سما الإنسان وتطهر التصق بالروح أي الله. الفريق الثاني: هؤلاء يزعمون أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء في زعمهم هو الله تجلى فيه[٢].

لابن عربي في كتابه "فصوص الحكم"، وكتابه الآخر "الفتوحات المكية" من الأقوال في وحدة الوجود ونفي الفرق بين الخالق والمخلوق وثبوت اتحادهما تماماً أقوال لاتكاد تحصر نثراً ونظماً . وكذلك ابن الفارض.

---

١) عوارف المعارف: ص٣٥٣.

٢) طه عبد الباقي سرور: من التصوف الإسلامي ٨٩/١.

أما وحدة الشهود فهي ما يسمونها في بدء أمرها مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، أي لا يصل إلى درجة الحلول ولاتحاد في أول الأمر إلا بعد أن يترقى درجات ثم يصبح كما يقول على حرازم ناقلاً جواب شيخه التجاني: "اعلم أن سيدنا رضي الله عنه سئل عن حقيقة الشيخ الواصل ما هو؟ فأجاب رضي الله عنه بقوله: أما حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظراً عينياً وتحقيقاً يقينياً ." وهذه نهاية الفناء في الله ووحدة الشهود فيه. فإنه يرى بعض العلماء أن بين وحدة الوجود ووحدة الشهود فارقاً بعيداً ، وذلك أن وحدة الوجود هي الحلول والاتحاد وعدم التفرقة بين الله وبين غيره من الموجودات، بينما وحدة الشهود عند بعضهم هي بمعنى شدة مراقبة الله تعالى بحيث يعبده كأنه يراه. لقد أصبحت وحدة الشهود عند المتصوفة هي أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية وهي الحال التي يسمونها بالفناء وعين التوحيد وحال الجمع، وهي الاتصال بين العبد وبين ربه عن طريق الشهود الصريح فيما يزعمون. ويصل الإنسان إليها – بزعمهم – بكثرة الذكر حتى يقع الشهود القلبي ثم يستغني عن الذكر بمشاهدة المذكور – حسب تخيلاتهم السقيمة الإلحادية –

فاتضح مما سبق أن الفوارق لا تكاد تعرف بين تلك التسميات، فهي داخلة في النهاية كلها في دائرة واحدة هي القول بالحلول مهما تعددت صوره[1].

أما الولاية فتطلق كلمة ولاية في اللغة العربية، على عدة معان منها التابع، المحب والصديق والناصر. أما معناها في مفهوم الصوفية فهي تنتهي أخيراً في مصب وحدة الوجود، فقد عرفها المنوفي تحت عنوان "أولياء الله" بقوله: "اعلم أن الولاية عبارة عن تولي الحق سبحانه وتعالى عبده بظهور أسمائه وصفاته عليه علماً وعيناً وحالا وأثر لذة وتصرفاً"، ثم زاد الأمر وضوحاً حينما بين التجليات الإلهية والفيوضات التي تقع على السالك وأفعاله وأفعال كل المخلوقات ثم "لا يرى في نظره غير فعل الفاعل الحقيقي وهو الله" وعرفها الجرجاني بقوله: الولي: هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات .وقال أيضاً : الولاية: هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه. وقد ذكر السهروردي الولاية وقسمها إلى أقسام باعتبارات مختلفة ثم ذكر بعض الكرامات للأولياء التي لا يخلو من ذكرها كتاب صوفي، ثم خلص السهروردي إلى أن الصالحين الذين يتولاهم الله ويتولونه

---

١) فواخر المعاني: ١/١٣٥.

ليس المراد بهم:" الذي يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب ويقولون: فلان صالح وشهيد وولي، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته." وأما القشيري فقد ذكر تعريفات كثيرة للولاية، ونقل عن أكابر مشايخهم آراءهم في الولاية وأهميتها وعلاماتها وكيفية الحصول عليها ومسائل أخرى ، وهكذا فإن نظرة الصوفية إلى الولي والولاية ليست هي تلك المنزلة الطيبة في مفهوم الإسلام، لأن الولي الصوفي لا حد لصلاحياته في هذا الكون.

لقد جاءت الولاية في القرآن الكريم مراداً بها المدح، وأحياناً مراداً بها الذم، فهي تستعمل في الخير وفي الشر حسب إطلاقها، لأن صاحبها إما أن يكون ولياً لله تعالى أو ولياً للشيطان، وبين الولايتين من البعد والانفصال ما يعرفه كل مسلم سليم الفطرة صافي العقيدة. وجاءت في السنة النبوية مراداً بها وصف من ساروا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتزموا طريق الخير ونصروا الدين ووالوه. لكن توسع الصوفية والشيعة في إطلاقها وخرجوا بها عن حقيقتها ومدلولها الصحيح، فأطلقت على الرجل المتصوف أو من ينتسب إلى آل البيت، ثم أسبغوا على أئمتهم وكبار دعاتهم هذه الكلمة لمطامع اجتماعية وسياسية. ثم أخذها الصوفيين بعد ذلك وأخرجوها في مذاهب الحلول والاتحاد وحدة الوجود، وهناك

صفة ثانية أضيفت إلى مفهوم الولاية عند الشيعة والصوفي، وهي صفة العلم اللدني الذي أخذه علي بن أبي طالب عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما زعموا، ثم ورثة إياهم ببركة تلك الولاية، وبلغ الغلو بالصوفية في أوليائهم إلى أن اتخذوهم بين الله وبين خلقه وسطاء. وقد قسموا الولاية والأولياء إلى أقسام يطول شرحها بدون فائدة فيها[1].

الشيعة:

أطلقت كلمة الشيعة مراداً بها الاتباع والأنصار والأعوان والخاصة. وقد وردت كلمة شيعة ومشتقاتها في القرآن الكريم مراداً بها معانيها اللغوية الموضوعة لها على المعاني التالية: بمعنى الفرقة أو الأمة أو الجماعة من الناس، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ (مريم: ٦٩) أي من كل فرقة وجماعة وأمة. وبمعنى الفرقة. قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩) أي فرقا. وجاءت لفظة أشياع بمعنى أمثال ونظائر: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

---

١) جمهرة الأولياء ٩٨/١ وما بعدها.

القمر: ٥١) أي أشباهكم في الكفر من الأمم الماضية. وبمعنى المتابع والموالي والمناصر، قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ ﴾ القصص: ١٥)

اختلفت وجهات نظر العلماء في التعريف بحقيقة الشيعة، نوجز أقوالهم فيما يلي: أنه علم بالغلبة على كل من يتولى علياً وأهل بيته. كقول الفيروزآبادي: وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً وأهل بيته، حتى صار اسماً لهم خاصاً [١]. هم الذين نصروا علياً واعتقدوا إمامته نصاً، وأن خلافة من سبقه كانت ظلماً له.هم الذين فَضلوا علياً على عثمان رضي الله عنهما. الشيعة اسم لكل من فضل علياً على الخلفاء الراشدين قبله رضي الله عنهم جميعاً، ورأى أن أهل البيت أحق بالخلافة، وأن خلافة غيرهم باطلة وكلها تعريفات غير جامعة ولا مانعة إلا واحداً منها.

اختلفت أقوال العلماء من الشيعة وغيرهم في تحديد بدء ظهور التشيع تبعاً لاجتهاداتهم. وحاصل الأقوال أنه ظهر مبكراً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم

---

١) القاموس المحيط: ٣/٤٩.

وعلى يديه حيث كان يدعو إلى التوحيد ومشايعة علي جنباً إلى جنب. وقد تزعم هذا القول محمد حسين الزين من علماء الشيعة وغيره[١]. وهو ما ذكره النوبختي أيضاً في فرقه، بل ذهب حسن الشيرازي إلى القول: بأن الإسلام ليس سوى التشيع والتشيع ليس سوى الإسلام، والإسلام والتشيع اسمان مترادفان لحقيقة واحدة أنزلها الله، وبشر بها الرسول صلى الله عليه وسلم[٢]. وأنه ظهر في معركة الجمل حين تواجه علي وطلحة والزبير، وقد تزعم هذا القول ابن النديم حيث ادعى أن الذين ساروا مع علي واتبعوه سّموا شيعة من ذلك الوقت[٣]. وأنه ظهر يوم معركة صفين، وهو قول لبعض علماء الشيعة كالخوانساري، وأبو حمزة، وأبو حاتم. كما قال به أيضاً غيرهم من العلماء، مثل ابن حزم، وأحمد أمين[٤]. وأنه كان بعد مقتل الحسين رضي الله عنه، وهو قول كامل مصطفى الشيبي وهو شيعي؛ حيث زعم أن التشيع بعد مقتل الحسين أصبح له طابع خاص. وأنه ظهر في آخر أيام عثمان، وقوي في عهد علي[٥]. وقد قال محمد مهدي الحسيني الشيرازي: وقد

---

١) أحمد أمين: الشيعة والتشيع، ص ١٩.

٢) النوبختي: فرق الشيعة، ص ٣٩.

٣) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٤٩.

٤) الشيعة والتشيع، ص ٢٥.

٥) المصدر السابق.

سماهم بهذا الاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال مشيراً إلى علي عليه السلام: هذا وشيعته هم الفائزون[1]. على أنه –فيما يبدو– لا مانع أن يوجد التشيع بمعنى الميل والمناصرة والمحبة للإمام علي وأهل بيته قبل ذلك – إذا جازت تسمية ذلك تشيعاً – لا التشيع بمعناه السياسي عند الشيعة.

كان مدلول التشيع في بدء الفتن التي وقعت في عهد علي رضي الله عنه بمعنى المناصرة والوقوف إلى جانب علي رضي الله عنه ليأخذ حقه في الخلافة بعد الخليفة عثمان، وأن من نازعه فيها فهو مخطئ يجب رده إلى الصواب ولو بالقوة. وكان على هذا الرأي كثير من الصحابة والتابعين، حيث رأوا أن علياً هو أحق بالخلافة من معاوية بسبب اجتماع كلمة الناس على بيعته، ولا يصح أن يفهم أن هؤلاء هم أساس الشيعة ولا أنهم أوائلهم، إذ كان هؤلاء من شيعة علي بمعنى من أنصاره وأعوانه. ومما يذكر لهم هنا أنهم لم يكن منهم بغي على المخالفين لهم، فلم يكفروهم، ولم يعاملوهم معاملة الكفار بل يعتقدون فيهم الإسلام، وأن الخلاف بينهم لم يُعد وجهة النظر في مسألة سياسية حول الخلافة وقد قيل: إن علياً كان يدفن من يجده من الفريقين دون تمييز بينهم. وقد أثمر

---

١) علوي السقاف: قضية الشيعة، ص٣ .

موقف الإمام علي هذا فيما بعد، إذ كان تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية انطلاقاً من هذه المواقف الطيبة التي أبداها والده رضي الله عنهما. ولم يقف الأمر عند ذلك المفهوم من الميل إلى علي رضي الله عنه ومناصرته، إذ انتقل نقلة أخرى تميزت بتفضيل علي رضي الله عنه على سائر الصحابة، وحينما علم علي بذلك غضب وتوعد من يفضله على الشيخين بالتعزير، وإقامة حد الفرية عليه. وقد كان المتشيعون لعلي في هذه المرحلة معتدلين، فلم يكفروا واحداً من المخالفين لعلي رضي الله عنه ولا من الصحابة، ولم يسبوا أحداً، وإنما كان ميلهم إلى علي نتيجة عاطفة وولاء، وقد اشتهر بهذا الموقف جماعة من أصحاب علي، قيل منهم أبو الأسود الدؤلي، وأبو سعيد يحيى بن يعمر، وسالم بن أبي حفصة، ويقال أن عبد الرزاق صاحب المصنف في الحديث، وابن السكيت على هذا الاتجاه .

الشيعة هو أشهر اسم من أسمائهم، ويشمل جميع فرقهم، ولا خلاف بين العلماء في إطلاقه، وقد أطلق عليهم بعض العلماء الرافضة. وكشأن العلماء في اختلافهم في عدد الفرق نجدهم قد اختلفوا في عدد فرق الشيعة. فالأشعري مثلا

يذكر أنهم ثلاث فرق رئيسية، وما عداها فروع[١]. بينما نرى البغدادي وهو يسمي الشيعة الروافض – أي بما فيهم السبئية و الزيدية– يعدهم أربعة أصناف والباقي فروعاً لهم ويعدهم الشهرستاني خمس فرق والباقي فروعاً لهم[٢]. وبعضهم يعدهم أكثر بكثير من هذه الأعداد كما قدمنا، والأقرب إلى الصواب أن يقال: إن من أكبر فرقهم أكثرهم نفوذاً ووجوداً في العالم الإسلامي إلى اليوم فرقة الإمامية وفرقة الزيدية. ومما لا شك فيه أن هذا الاختلاف تكمن وراءه أسباب[٣].

الاثنا عشرية: هذه هي الواجهة الرئيسية والوجه البارز للتشيع في عصرنا الحاضر وهم القائمون على نشر هذا المذهب والممول له بشتى الطرق والأساليب، وقد تحقق لهم الكثير مما أرادوه في العالم الإسلامي وذلك لما يبذلونه من مساعدات مادية ومعنوية. فتعتبر هذه الطائفة أشهر فرق الشيعة، وأكثرها انتشاراً في العالم، وإليها ينتمي أكثر الشيعة في إيران والعراق وباكستان وغيرها من البلدان التي وصلت إليها العقيدة الشيعية، ولهم نشاط ملموس في كثير من البلدان في الآونة الأخيرة؛ حيث توغلوا إلى أماكن من بلدان المسلمين ما كان لهم فيها ذكر.

---

١) مقالات إسلامية: ٦٥/١.

٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ١٤٧/١.

٣) القاموس المحيط: ٣٤٤.

وهم مجموعة من الطوائف المختلفة الآراء بعضها معلن وبعضها مستتر، ويجمعهم هدف عام واحد وهو علو المذهب الاثنا عشري الجعفري الذي أكد الخميني أن أتباعه يبلغون ٢٠٠ مليون شيعي[١]. وهو المذهب الرسمي لإيران والعراق والهند وباكستان. وقد انتشروا في بقاع من سوريا ولبنان ودول الخليج، وكثير من البلدان الإسلامية.

انقسمت الشيعة الاثنا عشرية إلى فرق كثيرة، ويعتبر الشيعة الإمامة وتسلسلها في آل البيت ركناً من أركان الإسلام، ويعتقدون أنها منصب ثبت من عند الله تعالى، يختار الله الإمام كما يختار الأنبياء والمرسلين. والاثنا عشرية يحصرونها في علي وفي أولاده، ولا يصححونها في غيرهم. والإمام له صلة بالله تعالى من جنس الصلة التي للأنبياء والرسل، قال الكليني في كتابه الكافي: أن الحسن بن العباس المعروفي كتب إلى الرضا يقول له: جعلت فداك، أخبرني ما الفرق بين الرسول والنبي والإمام؟. قال: فكتب أو قال: الفرق بين الرسول والنبي والإمام، أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي، وربما رأى منامه نحو رؤيا إبراهيم، والنبي ربما سمع الكلام، وربما رأى

---

١) الفرق الإسلامية: ص ٨٠.

الشخص ولم يسمع، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص. والشيعة يقررون أن رتبة الإمام لا يصل إليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، والإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله[١]. ويرى الإمامية أن الإمام إذا مات لا يغسله إلا الإمام الذي يليه، وهو أكبر أولاده[٢]. ويقول الشيرازي: روى غير واحد من أصحابنا أنه قال –أي جميل بن دراج–: لا تتكلموا في الإمام فإن الإمام يسمع الكلام وهو في بطن أمه[٣].

والشيعة حين قصروا استحقاق الخلافة في علي رضي الله عنه وفي الأئمة من بعده تلمسوا لهم أسباباً كثيرة نذكر منها ما يلي: قالوا: إن أمر الإمامة لا يحتمل عدم البيان، والرسول صلى الله عليه وسلم بعث لرفع الخلاف، فلا يجوز أن يترك بيان الإمام الذي يليه إلى اختلافات الناس واجتهاداتهم، يستدلون ببعض الروايات الواردة في فضائل علي رضي الله عنه ومن ذلك: من كنت مولاه فعلي مولاه[٤]. أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى[٥]، واستدلوا ببعض

---

١) الكليني: الكافي: ١٣٨/١.
٢) الكليني: الكافي، ١٥٠/١.
٣) الشيرازي: قضية الشيعة، ص ٤.
٤) الكليني: الكافي ٢٣٣/١.
٥) صحيح البخاري، ٧١/٧.

الاستنباطات من وقائع يزعمون أنها كانت من النبي صلى الله عليه وسلم تشير إلى خلافة علي منها: أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل علياً بسورة براءة ليقرأها على الناس في الحج مع أن أمير الحج هو أبو بكر رضي الله عنه حينئذ، فأرجعه كما يزعم عبد الواحد الأنصاري. والواقع أن فضائل الإمام علي مما يتباهى به أهل السنة، ويحرصون على ذكرها، وكان علي يعلم أن الخلافة ليست بالوراثة، وإنما تكون إذا اجتمع رأي أهل الحل والعقد من المسلمين على اختيار من يتولى الخلافة، ثم تعقب ذلك المبايعة العامة في المسجد. وقد رد على من قال له: استخلف علينا – كما يرويه ابن كثير – فقال: لا، ولكن أترككم كما تركككم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ثبت عنه، بل أعلن على منبر الكوفة إمام جمهور أتباعه أن الخلفاء الثلاثة من قبله هم أفضل هذه الأمة بعد نبِيّها صلى الله عليه وسلم: أيها الناس إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ولو شئت أن أسمي الثالث لسميته. وإذا كان تنازله عنها لحقن الدماء أفيوصي بسفكها بعد موته؟.

التقية عند الشيعة:

التقية في اللغة يراد بها الحذر. يقالتوقَّيت الشيء أي حذرته. والتقية في مفهوم الشيعة معناهأن يـُ ظهر الشخص خلاف ما يبطن، حيث يروي الكليني عن أبي عبد الله أنه قال: خالطوهم بالبرانية، وخالفوهم بالجوانية[١]. وللتقية عند الشيعة مكانة مرموقة، ومنزلة عظيمة فقد اعتبروها أصلا من أصول دينهم لا يسع أحداً الخروج عنها، وقد بحثوها في كتبهم كثيراً، وبينوا أحكامها وما ينال الشخص من الثواب الذي لا يعد ولا يحصى ولا يصدق لمن عمل بها، روى الكليني عن محمد بن خالد قال: سألت أبا الحسن عن القيام للولاء فقال: قال أبو جعفر(ع): التقية من ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له[٢]. وجعل الشيعة ترك التقية مثل ترك الصلاة تماماً. قال القمي: التقية واجبة، من تركها كان بمنزلة من ترك الصلاة، وقال القمي: وقد سئل الصادق عليه والسلام عن قول الله عز وجل: إن أكرمكم عند الله أتقاكم قال: أعلمكم بالتقية[٣]. تلمس الشيعة لمبدأ التقية بمفهوم لها نصوصاً حَّملوها ما لم تحتمله من المعاني التي يعتقدون أنها تؤيد ما يذهبون إليه.

---

١) الكليني: الكافي، ١٧٥/٢.

٢) المصدر السابق.

٣) نفسه.

ومن تلك الأدلة التي تمسكوا بها ما ذكره بحر العلوم في تعليقه على فرق الشيعة للنوبختي بقوله: التقية مما دل على وجوبه العقل إذا كانت لدفع الضرر الواجب، وقد دل عليه أيضاً القرآن العظيم، ثم نقل عن الطبرسي بعض الآيات يحتج بها، وفي هذا يقول محمد مهدي الحسيني الشيرازي عن الشيعة: وهم يرون التقية لقوله تعالى: (إلا أن تتقوا منهم تقاة)[1].

المهدي المنتظر عند الشيعة:

يؤمن أهل السنة بالمهدي الذي صحت به الأحاديث، ولكن غير مهدي الشيعة الذي أخباره عندهم أكثر من أن تذكر، وقد أفرده الطوسّي بكتابه المسمى: كتاب الغيبة. وإن القول بالمهدي وانتظاره من عقائد الشيعة البارزة والأساسية، ذلك المهدي الذي غاب عنهم لأسباب مؤقتة، وسيرجع وسيملأ الأرض عدلاً ورخاءً كما ملئت ظلماً وجوراً[2]. ويؤكد الكليني في الكافي: أن الأرض لا تخلو من إمام حجة إلا إذا كان قبل يوم القيامة بأربعين يوماً، فحينئذ لا يوجد حجة، ولا تقبل توبة من أحد، ومن الغريب أن يؤكد الكليني أيضاً أنه لا يجوز السؤال عن اسمه بأي حال، وأنه لا يسميه باسمه إلا كافر، ويكتفي عن ذكر اسمه بذكر لقبه القائم،

---

١) الكافي، ١٧٢/٢.

٢) الطوسي: كتاب الغيبة، ص ٢٦٠.

ويؤكد أن الغيبة سوف لا تتأخر كثيراً فقد سأل الأصبغ بن نباته أمير المؤمنين عن مدة الغيبة فقال: ستة أيام، أو ستة أشهر، أو ست سنين فهو لا يتأخر بعد أن امتن الله به على خلقه، وقد وقعت علامات كثيرة تبشر بقرب ظهوره، فإنه قبل ظهوره تقع الفتن بين الشيعة ويسمي بعضهم بعضاً كذابين، ويتفل بعضهم في وجوه بعض، ثم أورد الكليني روايات وقصصاً كثيرة حول علم المهدي بالمغيبات وأساطير كثيرة ذكرها عنه[١].

المهدي عندهم فهو الإمام الثاني عشر من أئمتهم حسب ترتيبهم لهم، واسمه محمد بن الحسن العسكري. ومع كل اهتمام الشيعة بأخباره والتلهف على لقائه فلقد اضطرب كلامهم حوله وتناقضت فيه أقوالهم. واختلف الشيعة في المكان الذي اختفى فيه مهديهم محمد بن الحسن العسكري على أقوال متضاربة، وأنه مختف في سامراء، في سرداب دار أبيه، وهذا من أشهر أقوال الشيعة والمتداول بينهم، وفي كتبهم[٢]. وقد ذكر الطوسي أن المهدي يخرج يوم عاشوراء يوم السبت بين الركن والمقام. وهذه الرواية عن أبي جعفر، وذكر رواية عن أبي عبد الله أنه ينادي باسم المهدي ليلة ثلاث وعشرين، ويقوم يوم عاشوراء يوم قتل

---

١) الكافي، ص٢٦٤ وما بعدها.

٢) كتاب الغيبة، ص ١٤٠.

الحسين. وفي بعضها أن جبريل ينادي يوم ستة وعشرين من شهر رمضان باسم القائم، ويقوم في يوم عاشوراء اليوم الذي قتل فيه الحسين بين الركن والمقام، فتسير إليه شيعته، ومنهم من يطير طيراناً، ومنهم من يمشي في السحاب، وهم أفضل أصحابه، وتكون الملائكة حوله صافين ومعه جميع الكتب المقدسة التي أنزلها الله على الأنبياء من أولهم إلى آخرهم. ثم يأمر بحصر المخالفين للشيعة فينكل بهم، ثم تعلو كلمة الشيعة ويمتد حكمهم إلى جميع الأرض وتكون الغلبة لهم...إلخ. ويذكر الطوسي عن أبي الحسن الرضا أنه قال: ينادون في رجب ثلاثة أصوات من السماء ..صوتا منها.. ألا لعنة الله على الظالمين، والصوت الثاني: أزفت الآزفة يا معشر المؤمنين، والصوت الثالث: يرون بدنا بارزاً نحو عين الشمس، هذا أمير المؤمنين، قد كّر في هلاك الظالمين[1].

المشروع الشيعي للحكومة الإسلامية:

الشك أن المذهب الشيعي كان قد بدأ كحزب سياسي معارض لحكومة أهل السنة والجماعة التي كونت الخلافة الأموية، وقد اجتهد الشيعة في وضع منظور خاص للحكم والسياسة، وتوصلوا إلى مفهوم الإمامة الذي جعلوه في مقابل

---

١) كتاب الغيبة، ٢٧٤.

الخلافة، وانتهى الأمر بأرجحية سلسلة الولاية الاثني عشرية، كحكومة في المنفى للشيعة، ثم كان التفكير في إقامة حكومة إسلامية شيعية في زمن الغيبة، فقام عدد من الدويلات في العراق وإيران وآسيا الوسطى استقلت عن الخلافة العباسية، كتجربة لدولة منفصلة عن الخلافة، ثم قامت الخلافة الفاطمية في مصر وشمال أفريقيا كأول دولة شيعية ذات سيادة، تطبق المذهب الشيعي بكل أبعاده العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية، ونشطت هذه الدولة في إنشاء جامعة شيعية من خلال الجامع الأزهر، وقامت فيه بتربية الدعاة الشيعة، وإرسالهم إلى الأقاليم الإسلامية، حتى التابعة للخلافة العباسية.

وقد استطاع شيعة إيران أن يقيموا حكومة دينية في أوائل القرن العاشر الهجري على يد الاسرة الصفوية، مما أدى إلى عملية الدمج بين المرجعية الدينية والمرجعية السياسية، حيث أعطت الدولة لعلماء الدين الشيعة مكانة خاصة في الحكومة، وقاموا هم بدورهم بوضع نظام مؤسسي للحكم والإدارة، وأصبحت المرجعية الدينية أو مراجع التقليد تعني لدى الإيرانيين علماء المذهب الشيعي الذين يرجع إليهم في شئون الحياة العامة وأمور الدين والمذهب في فترة غيبة الامام المهدي، وهكذا ارتبطت فكرة المؤسسة الدينية بالمذهب الشيعي وحده،

خاصة مع إنشاء الحوزات العلمية الدينية التي بنيت على أساس تجميع المدارس الفقهية التي يمثلها مراجع الشيعة، وقد ساعد على ذلك مبدأ الإمامة الذي يفرض على كل شيعي أن يكون مقلدا لأحد الفقهاء يرجع إليه في أمور دينه ودنياه، ويكون حبل وصله بالإمام لأنه من مات بغير إمام _ كما يعتقد الشيعة _ مات جاهليا، ومع استقرار هذه الأفكار أصبحت الحاجة ملحة لاستمرار حركة الفقه وتربية الفقهاء وفتح باب الاجتهاد، كما أتاح لمراجع الشيعة تحصيل الزكاة والهبات والنذور فضلا عن الأنفال التي تتمثل في الخمس الذي أسقطه علماء السنة باعتبار أنه كان من حق النبي عليه السلام وسقط بموته لأنه لا يورث، في حين أن الشيعة يعتقدون أنه من حق الامام، وينوب في تحصيله عنه الوكلاء والمراجع في فترة غيبته، وبهذا الدعم المالي أصبح للشيعة مؤسسة دينية قوية مستقلة لا تنتظر دعما من حاكم يتدخل في شئونها، واستطاع المحقق الكركي المعروف بالمحقق الثاني أن يقيم حوزة علمية دينية قوية في أصفهان، وكان قد أمضى فترة كبيرة من حياته في الحلة والعتبات المقدسة في العراق، وبعد وفاته تابع الملا عبد الله التستري مسيرته فعمل على دعم الحوزة وتوسعتها وتطويرها بإدخال العلوم العقلية إلى جانب العلوم النقلية، حيث كانت الحكمة والفلسفة والتصوف

والرياضيات من المواد الدراسية التي تخصص فيها عدد من علماء الشيعة، وقد وضع الملا محمد باقر المجلسي بعد ذلك أول موسوعة للفقه الشيعي تحت اسم بحار الأنوار، وقد تنافست حوزات شيعية أخرى مع حوزة أصفهان هي حوزة النجف وحوزة جبل عامل وحوزة البحرين، وقد ضمت كل حوزة عددا من المدارس الدينية، وكانت الحوزة العلمية الدينية في النجف مزدهرة فقهيا وعلميا خلال القرن الثالث عشر الهجري مع ظهور علماء أفذاذ مثل الشيخ الطوسي الذي أسس دار العلم والشيخ مرتضى الأنصاري وآخوند الخراساني ومحمد حسن الشيرازي وسيد أبو الحسن الاصفهاني ومحمد حسن النجفي، كما صارت أكبر مركز علمي ديني للشيعة في عهد محمد حسين كاشف الغطاء بعد أن أنشئت معاهد ومراكز بحث وجمعيات علمية مثل جمعية منتدى النشر التي أسسها الشيخ محمد رضا مظفر، وكلية الفقه التي أسستها جمعية علماء العتبات المقدسة والتي كانت تصدر مجلة النجف ومجلة الطالب، وقد أدخلت فصول تدريب الخطباء على الدعوة، ثم أنشأ محمد حسين كاشف الغطاء وزملاؤه في حوزة النجف جمعية التحرير الثقافي، ساهمت في تطوير الحوزة بإدخال علوم جديدة تقتضيها طبيعة العصر الحديث،

وينسب إلى آية الله عبد الكريم الحائري تأسيس حوزة قم الدينية التي أدخل فيها فكرة التخصص العلمي، كما أدخل فيها تعليم اللغات الاجنبية.

وقد ظلت الحوزة الدينية مهدا لتربية العلماء والمفكرين والمجتهدين في الفروع المختلفة مثل الفقه والتفسير والفلسفة والتصوف والتاريخ والرياضيات، وقد استطاعت أن تستقطب إليها أعدادا كبيرة من المقلدين والمريدين والطالب، خاصة حوزات النجف وسامراء وكربلاء وجبل عامل وقم ومشهد، وقد جعل علماء الحوزة المساجد مكانا للتدريس وبيوتهم مكانا لعقد الندوات والمناظرات العقائدية والعلمية، ثم صارت البيوت فيما بعد مركزا لإدارة المعاملات المالية وموارد شيوخ الحوزة من النذور والهبات والزكاة وحق الخمس. وتتميز الحوزات العلمية الدينية بأنها تعطي لطالبها عناية خاصة، فهي لا تضع نظم المدارس الدينية لمجرد منح الشهادات أو الاجازات العلمية، بل تحرص على تنمية استعداد الطالب العقلي والبحثي وزيادة معلوماتهم الفقهية والأصولية والفلسفية والثقافية مع تزويدهم بالرؤية العلمية والسياسية، ومن هنا يبدأ معهم المنهج الاجتهادي منذ الصغر ومع تدرجهم في المراتب العلمية كواعظ ثم كمجتهد ثم كحجة الإسلام وحجة الإسلام والمسلمين ويظل حتى المرجعية فيصبح آية الله ثم آية الله العظمى، مما يجعل عملية التجديد

في الفكر الشيعي وخطابه الديني مستمرة، ومن الواضح أن الدور الذي يمثله المرجع في الحوزة قد اتسع باتساع قدرة شخصيته على التأثير واستقطاب الزملاء والتلامذة والمقلدين بأفكاره ونظرياته، فضلا عن اتساع أفق معلوماته وثقافته العامة ونظرته للكون والعالم، وكذلك درايته بالتطورات الحضارية المعاصرة، وقد أتاح تجميع مرجعية التقليد في يد بعض علماء الدين خلال فترات متقاربة أن يقوم مرجع التقليد بدور الزعيم الذي يخرج من مجرد التوجيه الديني والاجتماعي إلى المجال السياسي والاقتصادي، بحيث كانت الحوزة تقود الحركة الاجتماعية السياسية في إيران والعراق، وأهمها ثورة العشرين التي قادها سيد محمد تقي الشيرازي ضد الانجليز الذين استولوا على العراق عام ١٩١٧م وحمل الشيعة مراجع ومقلدين السلاح في وجه الاستعمار، كما أعلن الشيرازي تحريم التنباك في بيانه الذي ألقاه في سامراء، وأعلنت التعبئة العامة بفتوى علماء النجف، كذلك قامت حوزة قم بدعم تأميم البترول ومكافحة الانجليز وإقامة علاقات مع إسرائيل. كما قاد آية الله الخميني الثورة الإسلامية في إيران، والتي أعلنت الجمهورية الإسلامية على أساس ولاية الفقيه.

مفهوم فكري للحضارة ومسيرتها:

لقد استفاد الإنسان من القوانين الحاكمة لنظام الكون وأخذ منها ما أقام عليه تقدمه العلمي والتكنولوجي، ولكنه لم ينظر في الكون ليتعرف على دلائل الوحدانية الهادية إلى خالقه ومبدعه، كي تتزن بذلك نفسه وينضبط سلوكه إذا ما تفاعلت فطرته واستجابت لشريعة خالقها.

وإذا كان الأداء الإنساني هو التفاعل بين السلوك والإنجاز فإن تنمية هذا الأداء بما يخدم أهداف خلافة الإنسان لله على الأرض لا يتحقق إلا إذا كان هذا السلوك نابعا عن إيمان صادق وفهم واع للحقوق والواجبات التي على أساسها يعطي الإنسان ولاءه فيأتي إنجازه محققا للمعايير الإسلامية وليس فقط إنجازا كميا. وهنا تظهر أهمية القيم الدينية كقاعدة تحكم أداء الفرد وتعمل على تحسينه وتطويره ليس فقط في داخل منظمات العمل ولكن أيضا خارجها.

الحضارة الإسلامية هي واسطة عقد حضارات العالم ليس لأنها حضارة الأمة الوسط زمنيا فحسب بل الأمة الوسط عقائديا وثقافيا بحكم الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ

ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ...﴾ (البقرة: ١٤٣) فضلا عن كونها حضارة خير أمة بتوفيق الله حيث قال في قرآنه الكريم: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ...﴾ (آل عمران: ١١٠) ومن ثم فإن هذه الحضارة لا يزعجها أن تنظر في الحضارات التي سبقتها حتى ولو كانت لأمم بائدة، فهي لا تستعظم إنجازاتها ولا تحقرها بل تأخذ منها العبرة والعظة وما يمكن أن تحصل عليه من فائدة مادية ومعنوية، كما أنها لا تخشى النظر إلى الحضارات المعاصرة وما يتعلق بها من تقدم علمي وتقني، لأنها ترتكز في نظرتها إلي ذلك الرصيد الهائل من أدوات المعرفة التي هيئت لها باعتبارها الحضارة الوسط، وباعتبارها الشاهد علي غيرها من الحضارات، وباعتبار الأسلوب المرعي لأصحابها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

ويبدو رقي نظرة الحضارة الإسلامية إلى الحضارات الأخرى من خلال مفهوم الحضارة لدى الإسلام فهي فوق كونها منظومة من الاقتصاد والاجتماع والثقافة والسياسة، تمثل مجموعة إنسانية في الوعي الداخلي للإنسان يظهره إذا دعت الحاجة، ومن ثم فإن الحوار الذي يمكن أن تجريه هذه الحضارة مع

الحضارات الأخرى يهدف بالضرورة إلي إزالة أو تقليل سوء الفهم الحالي بين الشعوب، والتطبيق الصحيح والمفيد للمفاهيم البشرية المعاصرة مثل: علاقات الصداقة والاخوة، العدالة، السلام، حقوق الإنسان، العولمة (وتصحيحها بالعالمية الإنسانية) وغير ذلك، ومن خلال هذا المنطلق يكون المدخل الإسلامي الذي نقترحه.

المدخل الإسلامي لحوار الحضارات يستقي معالمه من القرآن الكريم، سواء في تعريفه للإنسان محور الحضارة وقيمته وإمكاناته ومنهجه وغايته، أو في حقوقه وواجباته كفرد أو كمجتمع أو كأمة أو في نمط الحوار ومنهجه ومستواه وموضوعاته وأهدافه، وهو يعني بالثقافة التي هي المعيار الأساسي والحقيقي لأساليب قياس تقدم الحضارات، لذلك فهو أكثر المداخل إيجابية في تحقيق الهدف من الحوار، لأنه يقوم على قاعدة قوية من النضج العقلي والعلمي، مدعمة بمنهج علمي راق وبإرشادات إلهية، مع إدراك واضح للثقافات المعاصرة التي تؤثر تأثيرا مباشرا على حياة الإنسان المعاصر، فإذا كان طرح حوار الحضارات يهدف إلي عمل التوازن اللازم بين الشعوب والأمم في إطار العولمة التي تعتبر العالم قرية كونية، يكون هذا المدخل الإسلامي وسيلة فعالة في الحوار والتفاعل وصولا إلى

أهداف سامية، فالمدخل الإسلامي يعي معنى حوار الحضارات كما وعى كيفية بناء الحضارة وكيفية حل مشكلاتها.

الحضارة والثقافة:

ليس من شك في أن إحدى المشكلات النظرية التي تحتاج إلى حسم هي التعريف الدقيق لمفهوم الحضارة، فإذا كانت الحضارة في مفهومها التقليدي تركز أساسا على الجوانب المادية في المجتمع، باعتبار أن جميع مظاهر النشاط البشري فيه تمثل النمط الحضاري الذي يجيده المجتمع، فإن الثقافة تركز على الجوانب المعنوية والقيم باعتبارها موجهات النشاط البشري، وهناك بعض الباحثين يتسامحون في استخدام مصطلح الحضارة مكان مصطلح الثقافة، كإشارة إلى ظهور أو أفول منظومة مكونة من الاقتصاد والثقافة والسياسة في مجموعة إنسانية تدرس وتقيم عادة بعد أفولها، وغالبا ما يستخدم اصطلاح الحضارة للتعبير عن المنظومات القديمة المضمحلة مثل حضارة مصر وإيران والصين واليونان والروم وكلدة وبابل وآشور والإنكا والمايا وغيرها، ولو أن هذه الحضارات مازال لها جذور في وجدان العالم حتى اليوم إلا أن أحدا لا يشير أو يرجع إلى عناصرها المميزة،

بل ويعتبر الرجوع إلى عناصرها ارتدادا[١]، وإن كان هناك بعض الباحثين الذين لا يوافقون على التفرقة التقليدية بين الحضارة والثقافة، ويضيفون مكونا جديدا للحضارة بمعناها الواسع هو مكون الرؤية للعالم لأن هذه الرؤية تميز حضارة عن حضارة، ومفهوم رؤية العالم عندهم يعني النظرة للكون والمجتمع والإنسان، وقد أصبح هذا المفهوم منذ أن استخدمه في العقود الأخيرة "لوسيان جولدمان" عالم الاجتماع الفرنسي المعروف في كتابه (الإله الخفي) لدراسة إحدى الجماعات الدينية الشهيرة في فرنسا، من المفاهيم الأساسية في التحليل الثقافي، وهذا المفهوم له تاريخ طويل في الفلسفة وعلم الاجتماع[٢]، وفي ضوء هذا المفهوم يمكن القول إن الحضارة العربية الإسلامية لها رؤية محددة للعالم، وهذه الرؤية عادة ما تتشكل بناء على القيم الأساسية الحاكمة بالإضافة إلى التفاعل الثقافي الواسع المدى بين الأنا والآخر والذي يجعل هذه الرؤية فريدة حقا، ولا تتكرر بالضرورة في حضارات أخرى[٣].

---

١) محمود صدري: حوار الحضارات ضرورة عصرية: همشهري في ٢٠٠١/١/٤م.

٢) السيد يسين: حوارات حضارية: الاهرام في ٢٠٠١/٦/٢٨م.

٣) السيد يسين: دراسة حالة لحوار الحضارات: الاهرام في ٢٠٠١/٧/٥م.

لقد أصبح الزحف العولمي المغتصب لحقوق الإنسان وحريته أخطر من الحرب المباشرة الواضحة المعالم والأهداف. إن هذا الغزو العولمي الاقتصادي والثقافي إن كان يبدو في ظاهره الرحمة إلا أن المؤشرات تنطق بأن في باطنه عذاب واغتصاب لعقول الشعوب وهوياتها ليبقى عقل واحد يحكم العالم بهوية واحدة.

لذلك قد تكون أزمة القيم التي تشهدها الحضارات الإنسانية المعاصرة فرصة لإعادة بناء العلاقات الاجتماعية والدولية على أسس أخلاقية. إن العودة لتفعيل القيم الأخلاقية التي جاءت بها جميع الرسالات الإلهية في واقع الحياة بشارة للإنسانية يشكل إشباعا أفضل لذلك الجوع الروحي والعاطفي. إنها قوة عظيمة تدفع الإنسان لتحقيق حياة اجتماعية أفضل.

إنه الأمل في أن تتكاتف جهود الأفراد والجماعات والدول من أجل ترسيخ القيم الأخلاقية في نفوس الأبناء كلغة حوار مشتركة وكمعيار أخلاقي يحكم تصرفاتهم وعلاقاتهم الدولية. فثقافة السلام تتطلب أولا اعترافا بالآخر من حيث الحقوق والاختلافات الثقافية وذلك يتطلب آلية لحل النزاعات بل وقتلها في مهدها،

الأمر الذي لا تقدر عليه إلا نفوس مخلصة مؤمنة تقرأ الواقع وتحدياته بصورة إيجابية وتتعامل مع تفاعلات الأزمة بحكمة ومنهجية علمية رشيدة.

إن القيم الأخلاقية هي الضابط الرئيسي لسلوك الفرد حين تستمد فاعليتها من "رقابة ذاتية" أي من خوف من الله تعالى. إنها تتميز باتصالها الدائم بسلوك الفرد وبالتالي بأدائه، لذلك فهي رقابة مانعة (عند المنبع) مستمرة (في موقع العمل) مصححة (عند إتمام الإنجاز) وهذا نفسه هو ما تسعى إلى تحقيقه حركة تكنولوجيا الأداء البشري في هذا العصر.

إن الإنسان نفس (ذات مشاهدة) وروح (من عالم الغيب) فهو بهذه الذات ينتمي إلى عالم الشهادة الذي هو مجال عمله وعلمه واجتهاداته، وهو بروحه ينتمي إلى عالم الغيب الذي لا علم له به إلا في حدود ما أخبره الخالق عز وجل عن طريق الرسل.

لذلك لا يمكننا أن نتعامل مع الإنسان كذات منفصلة عن روحه، أي لا يمكن أن نتحدث عن تكنولوجيا الأداء البشري معتمدين فقط على مدارس العلوم الإنسانية والاجتماعية (التي هي نتاج العقل البشري) وتوجهاتها في إدارة الفرد والمجتمع دون النظر إلى الجانب الروحي الحاكم للقيم الأخلاقية التي جاءت بها

الرسالات الإلهية (الدين الإلهي) كقاعدة أساسية يجب أن يقوم عليها أداء الفرد والمجتمع من أجل حياة أفضل. إن الحاجة إلى الدين الإلهي أساس فطري (سورة الروم ٣٠) فلا غنى للإنسان عن منهج الله عالم الغيب والشهادة.

إن التمسك بالقيم الأخلاقية يضفي اللمسة الإنسانية ويؤكد على روح التعاون واقتسام السلطة بين الرئيس والمرؤوس، هذا التعاون القائم على فهم واع لقيمة الديمقراطية. كما يساعد ذلك على إيجاد وتعميق مفهومُ خلق القيمة الذي يدعم سلوك الناس وثقتهم. لذلك فإن القيم الدينية هي الأرض المشتركة التي تربط العلاقات الإنسانية بروابط الحب والتعاطف والسلام والتي إذا تشربتها النفوس انعكس ذلك على تخفيف حدة التوتر بين الأفراد والدول.

من هنا كان لابد من أن تصحح المفاهيم أولا بين المسلمين وعلمائهم لينظروا إلى واقعهم نظرة موضوعية قوامها ما يجب أن يكون وليس ما كان يجب. عليهم أن يتخلصوا من "شماعة" المؤامرة التي طالما علقوا عليها تقصيرهم وهوانهم وتفككهم وتخلفهم عن ركب التطور الحضاري، فإلقاء اللوم على الآخرين لن يدفع أمتهم إلى التقدم بل سيبقيها في مكانها وراء هذه القوى العظمى لا تملك مواجهتها!!.

إن مسألة "المؤامرة" و "التمويل الخارجي" و "العمالة لدولة أجنبية" كل هذه المصطلحات لا شك أن لها واقعا في العلاقات الدولية إلا أن استخدامها سلاحا في وجه كل من يتواصل مع هذه القوى العالمية لإيجاد مخرج مما فيه عالمنا الثالث من إشكاليات حضارية يعكس في حقيقة الأمر فهما معوجا لما يجب أن تكون عليه اليوم علاقة المسلمين بالآخر.

إننا اليوم في أشد الحاجة إلى مؤسسة لفقه قرآني يتفاعل مع المستجدات والتحديات العالمية برؤية حضارية معاصرة تقدم الحلول العلمية بعيدا عن اتهام الآخرين بالتآمر لإخفاء عجزنا، وبعيدا عن الخطاب الديني المذهبي الحماسي الملتهب الذي لا يغني ولا يسمن من جوع. إن الحوار بين الإسلام والآخر هو أول الطريق لمواجهة العولمة المغتصبة.

الفكر الإسلامي وحوار الحضارات:

لقد أصبح حوار الحضارات يحتل مكان الصدارة في قائمة الاهتمامات الفكرية للعلماء الاجتماعيين والساسة ومراكز البحوث والمؤسسات الدولية، وتشير نظريات علم اجتماع المعرفة إلى أن صعود مفهوم معين أو سقوط مفهوم محدد لا يتم عادة بمحض الصدفة، وإنما غالبا ما يتم نتيجة تفاعل عوامل متعددة سياسية

واقتصادية وثقافية، ومن هنا فإن صعود مفهوم حوار الحضارات يكمن خلفه انهيار النظام العالمي الثنائي القطبية، الذي شهد طوال القرن العشرين الصراع الايديولوجي بين الرأسمالية والشيوعية، ومن المؤكد أن بروز ظاهرة العولمة بكل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، وما أحدثته من انقلاب في أوضاع المجتمعات المعاصرة، وما أثارته من خلافات عميقة بين الساسة والمفكرين، التي دارت حول قيم العولمة، وصواب توجهاتها، وآثارها السلبية على أوضاع البشر، وخصوصا في دول الجنوب، هي التي فتحت الطريق لضرورة قيام حوار بين الحضارات.

وقد شهدت هيئة اليونسكو بدايات حوار الحضارات منذ عام ١٩٤٩م، والذي استمر حتى عام ١٩٨٩م، وهو التاريخ البارز الذي شهد انهيار الكتلة الاشتراكية، وكانت البحوث التي قدمت في مؤتمر "أوربا–العالم" الذي عقد في لشبونة عام ١٩٩٠م، تطرح أسئلة مهمة بشروط حوار الحضارات وطريقة تنفيذه، كما أكدت على أن الحوار ستلحق به تغيرات كبرى في عصر العولمة، لذلك فإن من الأهمية بمكان حين دراسة موضوع حوار الحضارات أن نحدد السياق التاريخي له، فإذا كان الحوار قد وجد دفعة قوية بعد انتهاء الصراع الايديولوجي

الحاد بين الرأسمالية والشيوعية والذي استمر طوال القرن العشرين تقريبا، بالإضافة إلى بروز ظاهرة العولمة بكل آثارها الإيجابية والسلبية، مع ظاهرة العلاقات المتعددة الأطراف، فقد أصبح لزاما محاولة فهم العالم المتغير الذي يقوم على أسس مفاهيم ثلاثة رئيسية، هي: العولمة والعلاقات المتعددة الأطراف والقومية، حيث يمكن القول إن إنشاء منظمة التجارة العالمية التي جاءت تتويجا لمفاوضات الجات التي استمرت عقودا طويلة من السنين تعد مثلا بارزا للعلاقات المتعددة الأطراف، غير أنه يمكن القول إننا ونحن في بداية عصر العولمة بدأنا نشاهد موجات متدفقة من المعاهدات الدولية في ميادين متعددة تعبر عن علاقات متعددة الأطراف، كان من أبرزها معاهدة "كيوتو" التي وقعتها أكثر من مائة دولة، وهدفها ضبط أحوال المناخ على الكوكب من خلال وضع معايير لقياس الغازات المنبعثة من كل دولة، ووضع سقوف لهذه الغازات لا ينبغي تعديها، غير أن معاهدة "كيوتو" ليست النموذج الوحيد في مجال العلاقات المتعددة الأطراف، فهناك اتفاقات أخرى في مجال الصحة، مثل اتفاقية محاربة "الإيدز"، التي صدرت عن مؤتمر عقد لهذا الغرض، واشتركت فيه ١٦٠ دولة فكان بمثابة دورة استثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

أما القومية فقد ظهرت لها مفاهيم جديدة في الستينيات أي بعد تشكيل الدول الوطنية في المستعمرات السابقة بعد الحرب العالمية الثانية وتقلص القدرة العسكرية لأوربا الغربية، ومن أبرز مفاهيم القومية ما ذكره "فريدريك بارث" من أنها نوع من الذاتية الفاعلة في إعادة صياغة الحياة لمجتمع له قيم ثقافية أساسية مشتركة وإحساس التعلق بواقع خارجي يفصله عن الآخرين، وتنمو القومية في اتجاهين: اتجاه أفقي يتسع باتساع الرقعة الجغرافية وإمكاناتها الطبيعية والمصاهرات العرقية والثقافية وسائر المشتركات من لغة ودين ومذهب وظروف تاريخية واجتماعية واقتصادية وثقافية ووحدة مصير، واتجاه رأسي يتسع من خلال عوامل طبيعية، مثل وجود موانع طبيعية كالجبال والبحار والصحاري، أو عوامل سياسية مثل وجود قدرات ذاتية كبيرة أو عمق ثقافي، إلا أن القضية الحقيقية في مسألة القومية هي قضية الإدارة التي تتخذ الشكل الوطني والنموذج الديمقراطي للمحافظة على فكرة القومية ومقوماتها الحضارية[١].

إذا كان حوار الحضارات قد أصبح عملية أساسية في الوقت الحاضر، أو هو كما يرى البعض أيديولوجية جديدة في عصر بلا أيديولوجية، فإن المسألة

---

١) ناصر فكوهي: القومية وحوار الحضارات: فصل المفهوم الجديد للقومية. همشهري في ٢٠٠١/٥/١٠م.

الجديرة بالنظر هي: كيف نقدم أنفسنا في الحوار، وما الذي نستطيع أن نضيفه إلى الفكر العالمي، والرؤية النقدية المتماسكة التي ينبغي أن نصدر عنها في نقاش الأفكار المطروحة من قبل الآخرين، وإذا كان الحوار لا يثمر إلا إذا توفرت الندية بين الأطراف المتحاورة فإن هذه الندية تنتزع ولا تمنح، بمعنى أنها تعتمد على قدرة ممثلي الحضارات المختلفة خصوصا الحضارات التقليدية التي تحاول أن تتجدد في الوقت الراهن، على عرض وجهات نظرهم، بما يثبت متابعتهم لأدق تفاصيل الخريطة المعرفية العالمية، ليس ذلك فقط، بل بما يشير إلى فهمهم العميق لطبيعة التغيرات التي لحقت بالمجتمع العالمي، ولمنطق التطور في العلاقات الدولية والاقتصادية والسياسية والثقافية بين الأمم، وهناك شواهد متعددة على إنجازات مشهودة لممثلي العالم الإسلامي في مفاوضات دولية بالغة التعقيد، وفي مجالات متعددة، إنجازات تشهد بالقدرة على الحوار، وعلى إقناع الأطراف الآخرى[1].

والواقع أن ما دار في المؤتمر الذي عقد لمحاربة الإيدز يعد نموذجا بارزا لأهمية الإلهام الإيجابي لحوار الحضارات، والدفاع عن الخصوصية الثقافية

---

١) السيد يسين: حوارات حضارية: الاهرام في ٢٠٠١/٦/٢٨م.

لحضارتنا الإسلامية من خلال إبراز رؤيتنا للعالم وخصوصا فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية ونظرتنا للإنسان، فقد دار صراع فكري حول بعض توصيات المؤتمر، سعت فيه الدول الإسلامية إلى حذف العبارات المخالفة للقيم الدينية التي تشبثت الدول الغربية بتضمينها البيان الختامي للمؤتمر، وتدعو إلى ضمان حقوق البغايا والشواذ من الرجال بما في ذلك إباحة اللواط والزواج بين الرجال، وقد نجحت الدول الإسلامية بتحركها الجماعي في حشد أكبر عدد من الأصوات لإفشال محاولات تضمين هذه العبارات في البيان الختامي[١]، وهو ما يثبت أهمية وجدوى اشتراكنا الإيجابي في حوار الحضارات، الذي أخذ يمتد إلى مختلف المجالات والميادين.

من الممكن أن يكون مشروع الحوار بين الحضارات مرآة جديدة للحياة والعالم، حيث أن الشرط الأول للحوار هو تواضع الطرفين مع التصديق، فبغير هذه الخصلة الإنسانية لا يمكن إقامة حوار يؤدي إلى معرفة دقيقة بهوية كل طرف[٢].

---

١) صحيفة الاهرام بتاريخ ٢٠٠١/٦/٢٨م، تحت عنوان: في مؤتمر الأمم المتحدة لمحاربة الايدز.

٢) صحيفة همشهري في ١٠ اسفند ١٣٧٨هـ.ش.

لاشك أن محاولة الرئيس الإيراني سيد محمد خاتمي لإجراء حوار بين الحضارات والتي نجحت في الاتفاق على أن يكون عام ٢٠٠١م هو عام حوار الحضارات بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة، يمثل سعيا حميدا لعرض الحضارة الإسلامية على العالم، وإنهاء حالة صراع الحضارات الذي يضغط بشدة على العالم الإسلامي، ويسعى إلى تشويه الحضارة الإسلامية، كما يمثل حلقة في سلسلة ممارسات مستمرة منذ عقود، فقد قام الرئيس خاتمي في خطابه إمام اليونسكو في باريس عام ١٩٩٩م بالدعوة إلى صياغة مجموعة مبادئ متفق عليها من شأنها أن تحدد أهداف الحوار وغاياته وموضوعاته ووسائل تحقيقه، كما أنه في فقرة مهمة من خطابه تناول بالنقد الفلسفي العميق بعض الاتجاهات والنزعات التي سادت الفكر الغربي منذ عهد الثورة الفرنسية، وكذلك بعض مسلمات الحداثة، بل وبعض دعوات ما بعد الحداثة مفندا إياها، ومما يلفت النظر في خطاب عام لرئيس دولة إسلامية، اهتمامه بإبراز الأسس الفلسفية لدعوة الحوار بين الحضارات، وتحليله النقدي لأبرز الاتجاهات الفلسفية والاجتماعية المعاصرة، وفي مقدمتها حركة ما بعد الحداثة، التي يعجز كثير من المثقفين في العالم الثالث عن فهم منطق نشأتها، والفروق الدقيقة بين مدارسها المختلفة ومصطلحاتها ومفاهيمها

الغامضة، ويقرر خاتمي في خطابه أن المبادئ والأحكام التي يدعو لها لتحكم مسيرة حوار الحضارات تتناقض مع الأحكام الحتمية والجبرية للنهوضيين التحصيليين من دعاة النهضة الفرنسية ومسلمات الحداثة، كما أنها لا علاقة لها بتشكيك ما بعد الحداثيين الذين لا حصر لهم، من هنا فإن أحد واجبات المهتمين بنظرية حوار الثقافات والحضارات هو القيام بتنقيح الأسس الفلسفية وتبيان المبادئ الفكرية لهذه النظرية بما ينقذها من الوقوع في حتمية العداء لأي نوع من أنواع التحري عن الحقيقة والبحث عنها، وكذلك من الوقوع في مهالك التشكيك غير المحدود لمفكري ما بعد الحداثة، الذين يفتقرون إلى حس المعاناة والألام العظيمة لآلاف الناس المحرومين، فيعتبرون الدعوة لأي نوع من العدالة والكفاح ضد الظلم شكلا من أشكال الدعوات المتجاوزة للخطاب والحوار، وهو ما لا يمكن إيجاد التفسيرات الفلسفية له.

لقد جاء نقد خاتمي لنظرية الحداثة التي يقوم عليها الفكر الغربي معبرا عن المدخل الإسلامي للحوار، حيث يوجد اختلاف واضح في المفاهيم والأسس لأن الحداثة الغربية تتسم بعدة سمات أولها الفردية، ذلك أن المجتمع البرجوازي الرأسمالي قد عمد إلى استخلاص الفرد من أسر المجتمع الإقطاعي الذي كان

سائدا في أوربا بما يتضمنه من التقييد الشديد لحركة الفرد اقتصاديا وسياسيا، والذي كان يقضي في الواقع على ذاتية الأفراد ويمحو شخصياتهم، أما السمة الثانية فهي العقلانية بمعنى إعلاء شأن العقل على حساب أنماط التفكير الخيالي وغير العلمي التي كانت سائدة من قبل، ودخلت العقلانية في صميم نسيج الحداثة الغربي، وأصبحت هي الأساس في عملية اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي والثقافي، وتبدو السمة الثالثة من سمات الحداثة الغربية في الاعتماد على العلم والتقنية لسد الاحتياجات الأساسية، كما تبدو السمة الرابعة في تطبيق المنهج الوضعي في العلوم الاجتماعية، والذي يركز على أن العلم لا يدرس إلا ما يمكن قياسه، والسمة الخامسة تبدو في تبني مفهوم خط التقدم الإنساني، بمعنى أن التاريخ يتقدم من مرحلة إلى مرحلة أخرى.

فإذا كانت هذه هي السمات الرئيسية لمشروع الحداثة الغربي فإن حركة ما بعد الحداثة التي نشأت منذ حوالي ثلاثة عقود، اتجهت إلى نقد كل الأسس التي قامت عليها، على أساس أنها مرحلة تاريخية وصلت إلى منتهاها، ولم تحقق وعودها في تحقيق السعادة للبشر، بل على العكس أدت إلى أن أصبح القرن العشرون الذي شهد تجليات الحداثة الغربية بشكل بارز من القرون التي لا نظير

لها في تاريخ البشرية من حيث كثرة الحروب وسفك الدماء وممارسة الظلم والاستغلال، انتقدت حركة ما بعد الحداثة المغالاة في الفردية على حساب الصالح العام، مما أدى إلى تفكك المجتمعات، كما وجهت سهام النقد إلى العقلانية على أساس أن ممارسات الدول الصناعية المتقدمة كانت مضادة لها، ويكشف عن ذلك سباق التسلح الذي أهدرت فيه بلايين الدولارات على حساب التنمية البشرية في العالم، كما أن سوء استخدام العلم والتطبيقات المنحرفة للتقنية كانت من بين الانتقادات الرئيسية للحداثة، يضاف إلى ذلك أن فكرة الحتمية قد سقطت في التاريخ وفي المجتمع وحتى في العلم، وقد قام الرئيس الإيراني خاتمي بنقد النزعة التشكيكية لأفكار حركة ما بعد الحداثة التي يفتقر أنصارها إلى حس الآلام العظيمة لآلاف الناس من المحرومين، خاصة مع سيطرة اتجاه يمكن وصفه بأنه عدمي لأنه ينكر الأحكام التعميمية على نطاق المجتمع، ويدعو إلى هجر مصطلحات "الحقيقية"، كذلك ترك مصطلح الموضوعية لأن الذاتية هي التي تحكم مختلف المسارات، كما أن التاريخ لديهم يفقد شرعيته باعتباره مجموعة من الكتابات الدعائية، هذا الاتجاه العدمي يدعو إلى "الجزئي" على حساب "الكلي"، ويكره المتون الكبيرة والأبنية الشمولية، ويدعو إلى الاهتمام بالهوامش والتركيز

على المجتمعات المحلية والفرد، أما الاتجاه التحرري في حركة ما بعد الحداثة فهو يدعو إلى تحرير الإنسان من كل القيود التي تكبله، وتحد من حركته، سواء في ذلك الأنظمة الشمولية، أو الخطابات القامعة، أو التقاليد الاجتماعية المتحجرة، أو الممارسات الثقافية الخانقة. إن الموقف النقدي لأسس الفكر الغربي قد أصبح مسألة ضرورية في كل العصور، وتبدو أكثر أهمية ونحن على مشارف عصر العولمة، الذي أدى إلى سقوط عديد من النماذج الفكرية القديمة، وبروز أزمة البحث عن نموذج حضاري لم تتضح معالمه بعد[1]. حقيقة أن هناك دعوات لصياغة تقنين أخلاقي عالمي من خلال حوار الحضارات من أبرزها دعوة هيئة برلمان الأديان التي نشرت مشروعها عبر الإنترنت والذي يتضمن ثلاثة مصادر مقترحة للقيم الأخلاقية هي القيم المشتركة في الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، التراث الاخلاقي للإنسانية مثل البوذية والكونفوشوسية وغيرهما من المذاهب الأخلاقية، الثقافة المدنية المعاصرة ونماذجها من ديمقراطية وتعددية وحقوق الإنسان، وكانت اليونسكو قد عقدت مؤتمرا بعنوان أخلاق المستقبل لإعادة صياغة المشكلة الأخلاقية في عصر العولمة، وهكذا يكون من

---

١) السيد يسين: حوار الحضارات في مواجهة ما بعد الحداثة: الاهرام في ٢٠٠١/٦/١٤م.

الضروري الكشف عن النسق الأخلاقي الإسلامي، وقد قدمت دراسات بهذا الغرض منها دراسة العالم المغربي محمد عابد الجابري في كتابه "العقل الأخلاقي العربي" الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية[1].

الأهداف الإسلامية لحوار الحضارات:

إن التيارات القومية والليبرالية والحداثية وحتى الماركسية والشيوعية التي سادت الساحة الثقافية والاجتماعية والسياسية في العصر الحديث، رغم حركة التصفية التي قام بها علماء الدين ومؤيدوهم من الإسلاميين، لم تخرج من الساحة تماما، وإنما استطاعت أن تجد لها ثوبا يتناسب مع المعطيات الجديدة، فلم يكن غريبا أن تدخل هذه التيارات الفكرية نسيج الفكر الإسلامي المعاصر، بعد أن استقرت الأمور لفكرة الوسطية على الساحة السياسية والثقافية والاجتماعية، ويبدو أن هذا المبدأ قد أفرز عدة اتجاهات فكرية أساسية أهمها ثلاثة: الاتجاه المحافظ والاتجاه الإصلاحي والاتجاه التجديدي، إلا أن هذه الاتجاهات تفاعلت مع غيرها من التيارات الفكرية، وساعدت على توجيهها لتكتسب الاصالة القومية أو الصبغة الإسلامية مع تمتعها بالحداثة والمعاصرة. وأصبح من الضروري أن نحدد

---

١) السيد يسين: الصراع الثقافي في حوار الحضارات: الاهرام في ٢٠٠١/٧/١٢م.

الأهداف الإسلامية، ومن حسن الحظ أنه يمكن استنباط الأهداف الإسلامية لحوار الحضارات من القرآن الكريم، حيث نجد عددا من الآيات التي تضع رؤية واضحة لهذا الأمر، ولعل أبرز ما يصادفنا من هذه الأهداف ما يلي:

أولا: تحقيق وظيفة الإنسان على الأرض، بمعنى عمارتها بواسطة ما سخره الله للإنسان من موارد طبيعية وإمكانات بشرية، وما أودعه الله في الإنسان من قدرة على الإبداع واستعداد للرقي المادي والمعنوي استحق به أن تسجد له الملائكة بعد برهان عملي من الله لهم على قدرة هذا الإنسان، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ...﴾ البقرة: ٣٠ ـ ٣٤) ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ...﴾ فاطر: ٣٩)

ثانيا: تواصل الحضارات، على أساس أن الناس كانوا أمة واحدة، وأن الله خلقهم من ذكر وأنثى، ثم جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، وأنهم متفقون في الفطرة، واعتبار ذلك أمرا بديهيا يقلل من مخاطر الخلاف، يقول الله تعالى:﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ...﴾ البقرة: ٢١٣) ويقول تعالى:﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ يونس: ١٩) ويقول تعالى:﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٩٢) ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ...﴾ الحجرات: ١٣) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن

شَيۡءٍۚ﴾ الطور: ٢١) ويقول تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾

المرسلات: ١٦ ١٧.)

ثالثا: الاتحاد حول حبل الله، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ...﴾ آل عمران: ١٠٣) وقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى:﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ...﴾ آل عمران: ٦٤)

رابعا: الرجوع للشرائع والتحكيم بها، عملا بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ...﴾ النساء: ٥٩) وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ...﴾ الشورى: ١٠) وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ...﴾ الحديد: ٢٥)

خامسا: الدخول في السلم: عملا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ... ﴾ البقرة: ٢٠٨) وقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ... ﴾ الحجرات: ٩)

سادسا: الدعوة للخير، عملا بقوله تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ... ﴾ آل عمران: ١٠٤) وقوله تعالى: ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ... ﴾ هود: ٨٨)

سابعا: التعاون على البر والتقوى، عملا بقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ... ﴾ المائدة: ٢)

ثامنا: الوفاء بالعقود، عملا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ... ﴾ المائدة: ١) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ... ﴾ النساء: ٥٨) وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ... ﴾

النساء: ١٣٥) وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ...﴾ المائدة: ٨) وقوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا...﴾ النحل: ٩١).

التنمية الفكرية ضرورة إسلامية:

عند الحديث عن التنمية الفكرية الإسلامية تبرز مصطلحات تحتاج إلى معالجتها سواء بتحديد مفاهيمها أو بإدخالها كليا أو جزئيا إلى الموضوع أو بإبعادها مرحليا أو تماما عنه، مثل: التنمية، الفكر، الإسلامية، مفهومها وأبعادها. والتنمية التي نقصدها هي معامل رفع العجز بإزالة أو تقليل الفاقد مما يعطي مردودا للزيادة، ثم استثمار هذه الكتلة من أجل المزيد، فيكون الحاصل هو التنمية، فالتنمية ليست بدءا من فراغ، وإنما إصلاحا لفكر موجود واستثمارا لناتجه. أما الفكر فهو وسيلة تحقيق الثقافة وأداة تطويرها، وهو لا يأتي من فراغ أيضا بل يستند إلى الوعي التراثي العام والإمكانات الذهنية التي تتميز بها الشخصية القومية. أما الإسلامية فهي ما تخص أمة حددت نفسها بالدول الداخلة ضمن

إطار العالم الإسلامي، مفردة أو مجتمعة، ولا تشمل كافة الناطقين بالضاد فحسب بل كافة الشعوب التي دخلت في الإسلام.

إذا كانت التنمية الفكرية قد أصبحت عملية أساسية في الوقت الحاضر، أو هو كما يرى البعض أيديولوجية جديدة في عصر بلا أيديولوجية، فإن المسألة الجديرة بالنظر هي: كيف نقدم أنفسنا، وما الذي نستطيع أن نضيفه إلى الفكر العالمي، والرؤية النقدية المتماسكة التي ينبغي أن نصدر عنها في نقاش الأفكار المطروحة من قبل الآخرين، بما يثبت متابعة أدق تفاصيل الخريطة المعرفية العالمية، ليس ذلك فقط، بل بما يشير إلى فهم عميق لطبيعة التغيرات التي لحقت بالمجتمع العالمي، ولمنطق التطور في العلاقات الدولية والاقتصادية والسياسية والثقافية بين الأمم.

إن الدعوة إلى صياغة مجموعة مبادئ متفق عليها من شأنها أن تحدد أهداف التنمية وغاياتها وموضوعاتها ووسائل تحقيقها، فضلا عن النقد الفلسفي العميق لبعض الاتجاهات والنزعات التي سادت الفكر الغربي منذ عهد الثورة الفرنسية، وكذلك بعض مسلمات الحداثة، بل وبعض دعوات ما بعد الحداثة وتفنيدها، مع إبراز الأسس الفلسفية للدعوة، والتحليل النقدي لأبرز الاتجاهات

الفلسفية والاجتماعية المعاصرة، وفي مقدمتها حركة ما بعد الحداثة، التي يعجز كثير من المثقفين في العالم الثالث عن فهم منطق نشأتها، والفروق الدقيقة بين مدارسها المختلفة ومصطلحاتها ومفاهيمها الغامضة، ومن المعروف أن هذه المبادئ والأحكام التي ندعو لها لتحكم مسيرة التنمية تتناقض مع الأحكام الحتمية والجبرية للنهوضيين التحصيليين من دعاة النهضة الفرنسية ومسلمات الحداثة، كما أنها لا علاقة لها بتشكيك ما بعد الحداثيين الذين لا حصر لهم، من هنا فإن أحد واجبات المهتمين بنظرية للتنمية الفكرية هو القيام بتنقيح الأسس الفلسفية وتبيان المبادئ الفكرية التي يمكن أن تقوم عليها هذه النظرية بما لا يجعلها تتعارض مع أي نوع من أنواع التحري عن الحقيقة والبحث عنها، أو الوقوع في مهالك التشكيك غير المحدود لمفكري ما بعد الحداثة، الذين يفتقرون إلى حس معاناة الآلام العظيمة لآلاف الناس المحرومين، فيعتبرون الدعوة لأي نوع من العدالة والكفاح ضد الظلم شكلا من أشكال الدعوات المتجاوزة للخطاب والحوار بلا مبرر فلسفي، فالحداثة الغربية تتسم بعدة سمات أولها الفردية، ذلك أن المجتمع البرجوازي الرأسمالي قد عمد إلى استخلاص الفرد من أسر المجتمع الإقطاعي الذي كان سائدا في أوربا بما يتضمنه من التقييد الشديد لحركة الفرد

اقتصاديا وسياسيا، والذي كان يقضي في الواقع على ذاتية الأفراد ويمحو شخصياتهم، أما السمة الثانية فهي العقلانية بمعنى إعلاء شأن العقل على حساب أنماط التفكير الخيالي وغير العلمي التي كانت سائدة من قبل، ودخلت العقلانية في صميم نسيج الحداثة الغربي، وأصبحت هي الأساس في عملية اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي والثقافي، وتبدو السمة الثالثة من سمات الحداثة الغربية في الاعتماد على العلم والتقنية لسد الاحتياجات الأساسية، كما تبدو السمة الرابعة في تطبيق المنهج الوضعي في العلوم الاجتماعية، والذي يركز على أن العلم لا يدرس إلا ما يمكن قياسه، والسمة الخامسة تبدو في تبني مفهوم خط التقدم الإنساني، بمعنى أن التاريخ يتقدم من مرحلة إلى مرحلة أخرى. فإذا كانت هذه هي السمات الرئيسية لمشروع الحداثة الغربي فإن حركة ما بعد الحداثة التي نشأت منذ حوالي ثلاثة عقود، اتجهت إلى نقد كل الأسس التي قامت عليها، على أساس أنها مرحلة تاريخية وصلت إلى منتهاها، ولم تحقق وعودها في تحقيق السعادة للبشر، بل على العكس أدت إلى أن أصبح القرن العشرون الذي شهد تجليات الحداثة الغربية بشكل بارز من القرون التي لا نظير لها في تاريخ البشرية من حيث كثرة الحروب وسفك الدماء وممارسة الظلم والاستغلال، انتقدت حركة ما بعد

الحداثة المغالاة في الفردية على حساب الصالح العام، مما أدى إلى تفكك المجتمعات، كما وجهت سهام النقد إلى العقلانية على أساس أن ممارسات الدول الصناعية المتقدمة كانت مضادة لها، ويكشف عن ذلك سباق التسلح الذي أهدرت فيه بلايين الدولارات على حساب التنمية البشرية في العالم، كما أن سوء استخدام العلم والتطبيقات المنحرفة للتقنية كانت من بين الإنتقادات الرئيسية للحداثة، يضاف إلى ذلك أن فكرة الحتمية قد سقطت في التاريخ وفي المجتمع وحتى في العلم.

أما فيما يتعلق بحركة ما بعد الحداثة ذاتها فإنها قد سقطت في النزعة التشكيكية التي يفتقر أنصارها إلى حس الآلام العظيمة لآلاف الناس من المحرومين، خاصة مع سيطرة اتجاه يمكن وصفه بأنه عدمي لأنه ينكر الأحكام التعميمية على نطاق المجتمع، ويدعو إلى هجر مصطلح "الحقيقية"، كذلك ترك مصطلح الموضوعية لأن الذاتية هي التي تحكم مختلف المسارات، كما أن التاريخ لديهم يفقد شرعيته باعتباره مجموعة من الكتابات الدعائية، هذا الاتجاه العدمي يدعو إلى "الجزئي" على حساب "الكلي"، ويكره المتون الكبيرة والأبنية الشمولية، ويدعو إلى الاهتمام بالهوامش والتركيز على المجتمعات المحلية والفرد،

أما الاتجاه التحرري في حركة ما بعد الحداثة فهو يدعو إلى تحرير الإنسان من كل القيود التي تكبله، وتحد من حركته، سواء في ذلك الأنظمة الشمولية، أو الخطابات القامعة، أو التقاليد الاجتماعية المتحجرة، أو الممارسات الثقافية الخانقة. إن نقد الأسس الفكرية الغربية قد أصبح مسألة ضرورية في كل العصور، وتبدو أكثر أهمية ونحن على مشارف عصر العولمة، الذي أدى إلى سقوط عديد من النماذج الفكرية القديمة، وبروز أزمة البحث عن نموذج حضاري لم تتضح معالمه بعد[١].

مدخل إسلامي للتنمية الفكرية الإسلامية:

المدخل المقترح يستقي معالمه من القرآن الكريم، سواء في تعريفه للإنسان محور الحضارة وقيمته وإمكاناته ومنهجه وغايته، أو في حقوقه وواجباته كفرد أو كمجتمع أو كأمة أو في نمط الحوار ومنهجه ومستواه وموضوعاته وأهدافه، وهو يعني بالثقافة التي هي المعيار الأساسي والحقيقي لأساليب قياس تقدم الحضارات، لذلك فهو أكثر المداخل إيجابية في تحقيق الهدف من التنمية، لأنه يقوم على قاعدة قوية من النضج العقلي والعلمي، مدعمة بمنهج علمي راق وبإرشادات

---

١) السيد يسين: حوار الحضارات في مواجهة ما بعد الحداثة: الاهرام في ٢٠٠١/٦/١٤م.

إلهية، مع إدراك واضح للثقافات المعاصرة التي تؤثر تأثيرا مباشرا على حياة الإنسان المعاصر، كما يمكن القول إن الحضارة الإسلامية لها رؤية محددة للعالم، وهذه الرؤية عادة ما تتشكل بناء على القيم الأساسية الحاكمة بالإضافة إلى التفاعل الثقافي الواسع المدى بين الأنا والآخر والذي يجعل هذه الرؤية فريدة حقا، ولا تتكرر بالضرورة في حضارات أخرى[١].

نموذج للتنمية الفكرية الإسلامية:

لا شك أن هناك دعوات لصياغة تقنين أخلاقي عالمي لإعادة صياغة المشكلة الأخلاقية في عصر العولمة، كما كانت هناك محاولات للكشف عن النسق الأخلاقي الإسلامي، وقد قدمت دراسات بهذا الغرض، ينبغي متابعتها واستكمالها، إلا أن الأوجب في هذا المجال هو البحث من خلال التراث والشخصية القومية عن نموذج فكري إسلامي، ومن المبشر أن تاريخنا الثقافي عامر بنماذج يمكن الاسترشاد بها، ومن حسن الحظ أن هناك أرضية طيبة يمكن البدء منها في نور توجيهات القرآن الكريم، سواء فيما يتعلق بأهداف التنمية الفكرية أو وسائلها أو ضوابطها أو موضوعاتها، كما أن هناك رؤى غير إسلامية

---

١) السيد يسين: دراسة حالة لحوار الحضارات: الاهرام في ٢٠٠١/٧/٥م.

تقترب من الرؤى الإسلامية في كثير من المجالات، خاصة في مجال التعاون، بل والأكثر من ذلك أن هناك نموذجا عربيا للتنمية الفكرية قام على أسس إسلامية في عصر ازدهار الحضارة العربية، وهو نموذج علم الكلام ومدارسه الفكرية وما تفرع عنها من فرق كالمعتزلة والأشاعرة والسلفية وغيرهم. والحديث عن علم الكلام ودوره في رقي الفكر العربي وتأثيره على الفكر الغربي في بناء الحضارة الحديثة يحتاج إلى مجلدات، لكن الذي يرشحه ليكون نموذجا طيبا لمنهج التنمية الفكرية العربية أنه قام على إثبات العقائد الإلهية بالحجاج العقلي أي بالجدل العلمي، واستطاع حل كافة المشكلات الفكرية بل والعقائدية للمثقفين العرب مما أدى إلى نهضة حضارية شاملة، كما استطاع أن يدخل إلى حظيرة الإسلام أعدادا كبيرة من الملاحدة والعلمانيين.

خاتمة:

لقد أصبح من الضروري أن يركز الفكر الإسلامي على بحث التنمية: وسائلها، أهدافها وغاياتها، منافعها ومخاطرها، ضوابطها وكيفية السيطرة عليها، سبل توظيفها لخدمة الإنسان والمجتمع، ما يتعلق بها من تقدم علمي وتقني وتأثيره على الإنتاج. إن المسألة الجديرة بالنظر هي: من أين نبدأ كي نحقق أهدافنا

بصورة إيجابية تضيف إلى الإنسان المسلم وإلى الفكر الإسلامي قيمة حقيقية تعين على تقدم المجتمع الإسلامي وتطوره، وتحقق الوحدة الحقيقية للعالم الإسلامي.

إن الحديث عن التنمية في أي مجال من مجالات الأنشطة الحياتية لابد وأن يبدأ بالحديث عن تنمية الذات (النفس) وذلك كي نحقق أهدافنا بصورة أكثر فاعلية. والشك أن تنمية الذات وإصلاح النفس تقوم على الفكر أي على العقل أو الأمانة، وهي ما وهبها الله تعالى للإنسان كإمكانات ذهنية وقدرات على التغيير هائلة.